إهـــــداء ٢٠٠٦
رصيد عام

حازم القرطاجنى ونظريات أرسطو فى البلاغة والشعر

للدكتور عبد الرحمن بدوى

ظفر حازم القرطاجنى من عناية الباحثين[1] المعاصرين بحظ غير قليل . بيد أن هذه العناية اقتصرت على « مقصورته » المشهورة ، خصوصاً لأنها حفلت بمعلومات تاريخية جليلة تتعلق ببنى حفص أصحاب إفريقية (أى تونس) ، إذ ألف هذه « المقصورة » لأبى عبد الله المستنصر الحفصى .

ذلك أن هؤلاء الباحثين لم يتنبهوا إلى أنه قد وصلنا كتاب رئيس من كتب حازم ، هو « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » فى البلاغة كما يدل عليه اسمه ، فى مخطوطة موجودة بمكتبة جامعة الزيتونة بتونس ، ويوجد منها فى دار الكتب المصرية نسخة بالتصوير الشمسى برقم ٦٣٣١ هـ .

وكتاب « منهاج البلغاء » بحث فى البلاغة كسره المؤلف على أقسام سمّاها باسم « المناهج » ، وقسم المنهج إلى فصول أو فقر طويلة يسميها على التوالى : « مَعْلَم » ، « إضاءة » ، « تنوير » ، أو : « مَعْرَف » ، « إضاءة » ، « تنوير » ، وتتوالى « الإضاءة » فـ « التنوير » داخل « المعلم » أو « المَعْرَف » الواحد . وليس ثمة فرق عنده بين « المعلم » و « المعرف » ، ولا أيضاً بين « الإضاءة » و « التنوير » —

---

(١) راجع :

ا — بروكلمن GAL جـ ١ ص ٣١٧ ، الملحق جـ ١ ص ٤٧٤ .

ب — اميليو غرسيه غومس : « ملاحظات على القصيدة المقصورة لأبى الحسن حازم القرطاجنى » ، مقال فى مجلة « الأندلس » المجلد الأول ص ٨١ ، ص ١٠٤ .

E. Garcia Gomez : "Observaciones sobre la Qasîda al-maqsura de Abu'l-Ḥ. Ḥâzim al-Q.". *Al-Andalus*, I, 81-104.

جـ — الدكتور مهدى علام : « أبو الحسن حازم القرطاجنى وفن المقصورة فى الأدب العربى » ، مقالتان فى « حوليات كلية الآداب » جامعة عين شمس ، جـ ١ ص ١ ، ص ٣١ ، جـ ٢ ص ١ — ص ١١٠ (تحقيق النص) ، القاهرة سنة ١٩٥٤ ، ١٩٥٣ .

بل هى تنويعات فى تسمية الأقسام لا تخلو من حذلقة لأنها غريبة . على أن فى استعمال هذه التسميات ما يفسر اختلاف المؤرخين فى ذكر عنوان الكتاب : فبعضهم يسميه « سراج البلغاء » (« أزهار الرياض » ٣ ؛ ١٧٢ ؛ « بغية الوعاة » ص٢١٤) ، وبعضهم الآخر يسميه « منهاج البلغاء » (« فيض نشر الانشراح من روض طىّ الاقتراح » لابن الطيب الفاسى ، ورقة ٢٤ ا مخطوط رقم ٢٢٤ نحو بدار الكتب المصرية و « البرهان » للزركشى جـ ١ ص ١٩، ٤٩١، جـ ٢ ص ١٠١ ص ٤٠٨ ، جـ ٣ ص ١٠٥ ، ص ٢٨٨ ، ص ٣١٤ وأخيراً يذكر على مخطوط تونس عنوان « كتاب المناهج الأدبية » وهو عنوان من وضع أحد مالكى الكتاب أو القائمين على شئون مكتبة جامعة الزيتونة . والعنوان الصحيح فى نظرنا هو ما أورده بدر الدين الزركشى فى كتابه « البرهان فى علوم القرآن » جـ ١ ص ٣١١ (تحقيق الأستاذ أبى الفضل إبرهم ، القاهرة سنة ١٩٥٧ م) وهو « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » .

والجديد فى هذا الكتاب بالنسبة إلى كتب البلاغة العربية الأخرى مما يعنينا هنا ، هو أنه قد عقد فصلاً طويلاً جداً تكلم فيه عن نظرية أرسطو فى الشعر والبلاغة ، خصوصًا كما عرضها ابنُ سينا فى قسمى « الخطابة » و « الشعر » من كتاب « الشفاء » . فلأول مرة نجد فى كتاب لأحد علماء البلاغة العربية الخُلص — أعنى غير الفلاسفة — عرضًا وإفادة من نظريات أرسطو فى البلاغة والشعر ، واستقصاء بالغًا لها باهتمام وحسن فهم ورغبة فى التطبيق على البلاغة العربية والشعر العربى .

ومع أن حازمًا أندلسىّ ولد فى قرطاجنة الأندلس سنة ثمان وستماية (السيوطى : « بغية الوعاة » ص ١٤٢ ؛ المقرى : « أزهار الرياض » جـ ٣ ص ١٧٢)، فإنه مما يثير الدهشة أنه لم يذكر اسم ابن رشد، ولم يشر إلى تلخيصه لكتابى « الخطابة[1] »

---

(١) راجع نشرتنا : ابن رشد : « تلخيص الخطابة » ، القاهرة سنة ١٩٦٠ ؛ وراجع تلخيصه للشعر فى كتابنا « أرسطوطاليس : فن الشعر فى الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابى وابن سينا وابن رشد » ، القاهرة سنة ١٩٥٣ .

و « الشعر » وقد كان حريًّا به أن يذكره ، لأن ابن رشد صنع صنيعه فى محاولة تطبيق نظريات أرسطو فى الخطابة والشعر على البلاغة العربية والشعر العربى ؛ وكان يمكنه أن يستفيد كثيراً من محاولة ابن رشد هذه . فكيف نفسر هذا الإغفال ؟

لقد كانا قريبىْ العهد ؛ إذ توفى ابن رشد فى سنة ٥٩٥ هـ ، وولد حازم كما قلنا سنة ٦٠٨ هـ ، وأحدهما من قرطبة والثانى من قرطاجنة الأندلس وكان أبوه من سرقسطة وشغل وظيفة قاض فى مرسية أكثر من أربعين سنة ، — أى أنهما من إقليم واحد — فمن غير المعقول أن لا يكون قد علم بتلخيص ابن رشد هذين .

أم يرجع هذا الإهمال إلى ما هو مألوف بين المعاصرين من حسد ونفاسة ؟ لكن هذا أيضًا قليل الاحتمال ؛ لأنهما لم يعيشا فى عصر واحد بمعنى أنهما لم يزدهرا فى عصر واحد بحيث يحتمل معه التنافس والخصومة ؛ فضلاً عن أن حازمًا قضى شطراً كبيراً من حياته العلمية فى تونس ، بعيداً عن الأندلس ودسائس الفقهاء والعلماء فيها .

لهذا نرجح أن يكون هذا الإغفال عن عمد ، لأنهما طرقا موضوعًا واحداً ألا وهو تطبيق نظريات أرسطو فى الشعر والبلاغة على الشعر والبلاغة العربيين ؛ فلكى يبين فضله على نحو أظهر أغفل ذكر ابن رشد متعمداً ، وهذه ظاهرة نفسية مألوفة لدى المتعاصرين أو المتقاربين فى الزمن . أما بالنسبة لابن سينا فلم يمكن ثمة مجالٌ للتنافس ، لأن ابن سينا لم يطرق نفس الموضوع ، بل اقتصر على عرض نظريات أرسطو دون أن يحاول تطبيقها .

وإذا كان قد ثبت أن قدامة ابن جعفر لم يتأثر فى « نقد الشعر » بكتابى « الخطابة » و « فن الشعر » لأرسطو طاليس ، كما برهن على ذلك بونيباكر [١] ، ولم نر من ناحية أخرى كتابًا من كتب علماء البلغاء فى القرون التالية حتى القرن السابع الهجرى قد عرض لنظريات أرسطو فى البلاغة وفى الشعر ، فإننا نستطيع أن نقول إن حازمًا القرطاجنى هو أول من أدخل نظريات أرسطو وتعرّض لتطبيقها فى كتب البلاغة العربية الخالصة ، فلا عبد القاهر الجرجانى فى « دلائل الإعجاز »

(١) *The Kitāb Naqd al-Si'r* of Qudâma b. Ga'far ..., door S.A. Bonebakkar, pp. 42-43. Leiden, 1956.

و « أسرار البلاغة » ، ولا الشهاب الخفاجي فى « سرّ الفصاحة » ، ولا السكاكى فى « مفتاح العلوم » ولا ابن رشيق فى « العمدة » قد تعرّض لهذه النظريات ، وإن كانت لا تخلو من أثر أرسطو . وفى هذا فضلٌ عظيم لحازم القرطاجنى يدل على سعة أفقه العلمى ومدى فهمه الدقيق لأسرار البلاغة . ويا ليت من أتوا بعده أخذوا عنه فى هذا ! ولكنه وا أسفاه ! لم ينسج واحد من بعده على منواله ، وظلت كتب البلاغة العربية الخالصة بمعزل عن أفكار أرسطو الخصبة الحية .

فإن الذين نقلوا عن كتاب « منهاج البلغاء » ، كالزركشى فى « البرهان »[1] والسيوطى فى كتاب « الاقتراح »[2] ، لم يعنوا بهذا القسم وهو « المنهج الثالث فى الإبانة عما به تتقوّم صنعتا الشعر والخطابة » ، وانصرفوا عنه لأنهم لم يألفوا وجوده وموضوعاته فى سائر كتب البلاغة العربية الخالصة .

وحازم فى هذا القسم يبدأ فيفرّق بين الشعر والخطابة على أساس أن الشعر يعتمد على التخييل ، بينما الخطابة تعتمد على الإقناع . على أنهما يجتمعان فى أنهما يجعلان الأقاويل الكاذبة توهم أنها صادقة . وذلك بالتمويه ، ويتعلم به الاستدراج ، وهو يتم بأن يتهيأ المتكلم بهيئة من يقبل قوله أو باستمالة المخاطب . والتمويه يكون بطىّ محل الكذب فى القياس عن السامع ، أو بوضع مقدمات القياس على ترتيب يوهم الصحة ، أو بإلهاء السامع عن تفقد موضع الكذب . ويستطرد إلى بيان كل هذه الأنواع وصورها ، مستشهداً على بعضها بشعر لامرئ القيس .

ثم يمضى إلى الحديث عن التمثيل الخطابى ، وهو الحكم على جزئى بحكم موجود فى جزئى آخر يماثله ، ويستشهد لذلك ببيت لأبى تمام . ويدعوه ذلك إلى التحدث عن الأمثال ، وكثرتها فى شعر العرب وكلامهم ، ويأبى إلا أن يسجل للعرب تفوقهم فى هذا الميدان ، ويؤكد أنه لو كان أرسطو قد قدر له أن يطلع على أمثال العرب وحكمهم واستدلالاتهم واختلاف ضروب التفنن فى الغوص على المعانى لديهم — « لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية » . وهى ملاحظة لها دلالتها العميقة .

---

(١) « البرهان فى علوم القرآن » ج ١ ص ٥٩ ، ٦٠ ، ٣١١ ، ٤٩١ ؛ ج ٢ ص ١٠١ ، ٤٠٨ ؛ ج ٣ ص ٧١ ، ١٠٥ ، ٢٨٨ ، ٣١٤ ، ٤٠٧ . تحقيق الأستاذ أبى الفضل إبرهيم . مطبعة عيسى الحلبى ، القاهرة سنة ١٩٥٧ — سنة ١٩٥٩ .

(٢) طبعة دلهى سنة ١٣١٣ هـ ص ١١ .

وهنا يدخل حازم فى عصب نظرية الشعر الأرسطية ، وأعنى بذلك فكرة « المحاكاة » فيجعل مقياس الشعر الجيد فى جودة المحاكاة ، ومقياس الرداءة فى رداءة المحاكاة ؛ ولا يفهم من المحاكاة التقليد الحرفى للطبيعة ، بل تحسين الطبيعة ، لكن بمقدار ، حتى لا يكون الكذب فى المحاكاة « شديد الوضوح خادعاً النفس عما تستشعره أو تعتقده من الكذب » . وليس تحسين المحاكاة من نوع الكذب ، لأن « ما وضع من الأوصاف والمحاكاة مقتصداً فيه غير متجاوز فهو قولٌ صِدْقٌ » ، لهذا يغلط الذين يظنون أن التشبيه والمحاكاة من جملة كذب الشعر ، والحقيقة أنهما ليسا من كذب الشعر فى شىء ، « لأن الشىء إذا أشبه الشىء فتشبيهه به صادق ، لأن المشبه مخبرٌ أن شيئاً أشبه شيئاً ، وكذلك هو بلا شك » . وإنما يقع الكذب فى المحاكاة والتشبيه إذا حدث فيهما إفراط وترك اقتصاد ، أى حدثت مبالغة وتجاوز عن حد الأصل ، « فالإفراط هو أن يغلو (الشاعر) فى الصفة فيخرج بها عن حدّ الإمكان إلى الامتناع والاستحالة » .

ويتعرض لأنواع الشعر اليونانى فيذكر من بينها الأشعار المستمدّة من الأساطير ، ويقول إنهم كانوا يجعلون تلك الأساطير ، وهى أشياء لم تقع فى الوجود ، أمثلةً لما وقع فيه ، « ويبنون على ذلك قصصاً مختَرعاً نحو ما تحدّث به العجائزُ الصبيان فى أسمارهم من الأمور التى يمتنع وقوعُ مثلها » — وهو يشير بهذا إلى شعر الملاحم ، خصوصاً شعر هوميروس . ولما لمْ يرَ له نظيراً فى الشعر العربى مرّ به سريعاً ولم يتوقف .

ولهذا يمضى بعد ذلك إلى تحليل طبيعة الشعر من حيث الصدق والكذب ، ويفصّل هنا كثيراً ويوسع فى التقسيمات ، مستعيناً بكلام ابن سينا ، وبكلام لأبى نصر الفارابى لم نجده فى رسالة الفارابى « فى قوانين صناعة الشعر » التى نشرناها فى « فن الشعر لأرسطوطاليس » ؛ ولعله أخذه من كلام للفارابى فى كتاب آخر يجوز أن يكون كتاب « فى الشعر والقوافى الذى ذكره ابن أبى أصيبعة » (ج ٢ ص ١٣٩ س ١٠ من أسفل) . وهذا يدل أيضاً على أنه إلى جانب ابن سينا رجع إلى الفارابى ، وإذن فقد كان واسع الاطلاع على كتب الفلاسفة العرب التى تناولت فن الشعر من الناحية الفلسفية ، وهو أمرٌ يبين عن سابغ فضله .

ويتناول التخييل فيحدّده ويفصل أحواله وأوضاعه ومواقعه فى النفس ، وخير الطرق كى يحدث أثره المطلوب . ويربطه بالمحاكاة ، مما يحمله على العود إلى بحث فكرة المحاكاة بتفصيل وإسهاب لا نجد لهما نظيراً عند ابن سينا ولا الفارابى ولا أرسطوطاليس ، ولعل هذا القسم هو أبرز مجهود شخصى بذله حازم فى هذا الباب كله ، مما اعتمد فيه على نفسه وعلى استقرآته فى الشعر العربى ، دون أن يعتمد على أسلافه هؤلاء ، ويكثر هنا من الاستشهاد بأشعار العرب من الأعشى حتى أبى تمام والمتنبى وابن الرومى . ويختم هذا الفصل بحديث شائق فيه تحليل نفسى عميق لموقع المحاكاة من النفس ، اعتمد فى بعضه على ابن سينا ، وأشار إلى أقوال لأفلاطون نجد أصداء لها خصوصاً فى محاورة « فدرس » ، وهكذا أبان فى هذا الفصل عن ثقافة فلسفية عميقة ، ومهارة فى تحليل المعانى الجمالية ، بحيث نستطيع أن نؤكد أن فى هذه الصفحات أول محاولة عربية فى علم الجمال esthétique .

عبد الرحمن بدوى
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة
كلية الآداب – جامعة عين شمس

من

كتاب المناهج الأدبية

لأبى الحسن حازم بن القاضى أبى عبيد الله بن حازم القرطاجنى

عن نسخة بالتصوير الشمسىّ بدار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ٦٣٣١ هـ

المنهج الثالث

فى الإبانة عما به تتقوم صنعتا الشعر والخطابة

من التخييل والإقناع والتعريف بأنحاء النظر فى كلتا الصّنعتين من جهة ما به تقومت وما به تعتبر أحوال المعانى فى جميع ذلك من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها .

مَعْلم دال على طرق العلم بما به تتقوّم صناعة
الشِّعر من التخييل، وما به تتقوّم صناعة الخطابة
من الإقناع ، والفرق بين الصِّناعتين فى ذلك

لما كان كلّ كلام يحتمل الصِّدق والكذب إما أن يردَ على جهة الإخبار والاقتصاص ، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال ، وكان اعتماد الصناعة الخطابية فى أقاويلها على تقوية الظن لا على إيقاع / اليقين — اللهم إلاّ أن يَعْدِل [٢٢ ب]
الخطيبُ بأقاويله عن الإقناع إلى التصديق ، فإنّ للخطيب أن يُلمّ بذلك فى الحال

---

(١) هذه النسخة صورتها دار الكتب المصرية عن نسخة العبدلية (نسبة إلى أبى عبد الله الحفصى) الموجودة بمكتبة جامعة الزيتونة بتونس . ولكنها تنقص فى تصويرها بضع صفحات من الأول ومن الآخر . وأول الكلام فى هذا المجلد المصور : « . . . الناس يستبردون ذكر الشيء من ذلك حيث لايليق استبرادهم قول القائل : والله إن كانت إلا أثياباً فى أصفاط قبضها عشار . . . تنوير : وإنما يورد المعانى العلمية فى كلامه من يريد التمويه » (ورقة ١٠ب) . وآخر ما ورد فى هذا المجلد المصور : « تنوير : ولما كانت الأوتار منها ما ثباته ضرورى فى إمساك الخباء وتحصينه ، ومنها ما فى ثباته تحصين ما وقد » (داخل المعرف الدال على طرق المعرفة ببلغ هذا الكتاب من أصول هذه الصناعة) (ورقة ١٤٨ ا) . وبعد ذلك ترد رسالة فى القوافى (من ١٤٥ ب إلى ١٤٧ م) ، وبعدها رسائل ديوانية (من ورقة ١٤٨ — ١ إلى ١٧٠ ب) .

بين الأحوال من كلامه ؛ واعتمادُ الصناعة الشعريّة على تخييل الأشياء التى يعبّر عنها بالأقاويل وبإقامة صورها فى الذهن بحسن المحاكاة؛ وكان التّخييل لا يُنافى اليقين كما نافاه الظّن ، لأنّ الشيء قد يُخيّل على ما هو عليه، وقد يُخيّل على غير ما هو عليه — وجب أن تكون الأقاويل الخطبيّة ، اقتصاصيّة كانت أو احتجاجية ، غير صادقة ما لم يُعْدل بها عن الإقناع إلى التصديق ، لأن ما يتقوم به وهو الظن مناف لليقين ؛ وأن تكون الأقاويل الشعرية ، اقتصاصية كانت أو استدلالية ، غير واقعة أبداً فى طرف واحد من النقيضين اللذين هما : الصدق والكذب ، ولكن تقع تارة صادقة وتارة كاذبة ، إذ ما تتقوم به الصناعة الشعرية — وهو التخييل — غير مناقض لواحد من الطرفين ، فلذلك كان الرأى الصحيح فى الشعر أن مقدماته تكون صادقة وتكون كاذبة . وليس يُعدُّ شعراً من حيث هو صدق ، ولا من حيث هو كذب ، بل من حيث هو كلامٌ مخيل .

إضاءة :

ولما كانت الأقاويل الصادقة لا تقع فى الخطابة بما هى خطابة إلا بأن يُعْدَل بها عن طريقتها الأصلية ، وكان ما وقع منها فى الشعر غير مقصود من حيث هو صدق ، كما لا تكون الأقاويل الكاذبة فيها مقصودة من حيث هى كذب بل من حيث هى أقاويل مخيّلة — رأيت ألا أشتغل بحصر الطرق التى بها يمتاز القولُ الصادق من غيره وتفصيل القول فى ذلك ، فإن ذلك مُخْرِجٌ إلى محض صناعة المنطق ، وإن كنت قد أشرت إلى الأنحاء التى يُتعرف منها ذلك إشارةً إجمالية لأرشدَ الناظر فى هذه الصناعة إلى جهات الفحص عن ذلك وأدُله على مظان التماسه فإن الخطيب واجب عليه والشاعرَ متأكّد فى حقه أن يعرف / الوجوه التى تصير بها ٢٣ ا
الأقاويل الكاذبة مُوهمةً أنها صِدْق .

تنوير :

وإنما يصير القولُ الكاذبُ مقنعًا وموهمًا أنه حق لتمويهات واستدراجات ترجع إلى القول أو المقول له . وتلك التمويهات والاستدراجات قد توجد فى كثير

من الناس بالطبع ، والحنكةِ الحاصلة باعتياد المخاطبات التى يُحتاج فيها إلى تقوية الظنون فى شىء ما أنه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات فى ذلك والتدرب فى احتذائها .

إضاءة :

والتمويهات تكون فيما يرجع إلى الأقوال .

والاستدراجات تكونُ بتهيؤ المتكلم بهيئة من يُقْبَل قوله ، أو باستمالته المخاطب واستلطافه له بتزكيته وتقريظه ، أو باطبائه[1] إياه لنفسه وإحراجه على خصمه حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم ، وكلامُ خصمه غيرَ مقبول .

تنوير :

والتمويهات تكون بطىّ محلّ الكذب من القياس عن السامع ، أو باغتراره إياه ببناء القياس على مقدمات توهم أنها صادقة لاشتباهها بما يكون صدقا ؛ أو بترتيبه على وضع يوهم أنه صحيح لاشتباهه بالصحيح ، أو بوجود الأمرين معاً فى القياس ، أعنى أن يقع فيه الخلل من جهتى المادة والترتيب معا ؛ أو بإلهاء السامع عن تفقد موضع الكذب ، وإن كان إلى حيز الوضوح أقرب منه إلى حيز الخفاء بضروب من الإبداعات والتعجيبات تشغل النفس عن ملاحظة محلّ الكذب والخلل الواقع فى القياس: من جهة مادة ، أو من جهة ترتيب ، أو من جهة المادة والترتيب معاً .

إضاءة :

فلما كان كثير من التمويهات التى تكون من غير جهة اشتغال النفوس بالتعجيبات والإبداعات البلاغية عن تفقه محل الكذب يقصدها كثير من الناس بطباعهم ويهتدون إليها بأفكارهم — وإن كان تحصيل القوانين فى حصر طرق تلك التمويهات أنفع شىء للخطيب / فى التوصل إلى الملكة الخطابية — رأيت ٢٣ ب
ألا أشتغل بحصر تلك الطرق عما هو أنسب إلى هذه الصناعة من ذلك من إبانة

---

(١) اطباه : استماله ، اقتاده .

وجوه النظر البلاغى فى الأقاويل الخطابية والشعرية من جهة ما يخص كلتاالصناعتين ويعمهما ، وأن نشير فيما أشرنا إليه من ذكر طرق التمويهات الخطابية على ما أصّله أهلُ صناعة المنطق كابن سينا وغيره .

تنوير :

وليس تَرِدُ المقاييسُ فى الأقاويل الشعرية والخطابية المقصود بها البلاغة إلا محذوفةَ إحدى المقدمتين أو النتيجة فى الحمليات ، ومحذوفة الاستثناءات والنتائج فى الشرطيات المتصلات ، لأن القياس كلام تلازمت فيه القضايا فصار مُسِمًّا بطوله مع ما يقع فيه من تكرار الأسوار والحدّ الأوسط وأجزاء النتيجة ، وكذلك المقدماتُ والتوالى فى الشرطيات المتصلات يقع فيهما وفيما يتصل بهما التكرار أيضا بما يُعاد من أجزائهما فى الاستثناء والنتيجة .

فلما كان القول القياسى قد لزمه الطول والتكرار ، لم يكن لهم بد فيما قصدوا به البلاغة من كلامهم من أن يعدلوا مقداره ويميطوا تكراره ، فإن الكلام إذا خفّ واعتدل حَسُن موقعه من النفس ، وإذا طال وثقل اشتدت كراهة النفس له .

إضاءة :

وليس يحمد فى الكلام أيضا أن يكون من الخفة بحيث يوجد فيه طيش ، ولا من القِصر بحيث يوجد فيه انبتار ، ولكن المحمود من ذلك ما له حظ من الرصانة لا تبلغ به إلى الاستثقال ، وقسطٌ من الطول لا يبلغ به إلى الإسئام والإضجار .

فإن الكلام المتقطع الأجزاء المنبتّر التراكيب غيرُ ملذوذ ولا مستحلىّ ، وهو شبْه الرَّشَفات المتقطعة التى لا تروى غليلا . والكلام المتناهى فى الطول يشبه استقصاء الجُرع المؤدى إلى الغَصَص . فلا شفاء مع التقطيع المُخِلّ ، ولا راحة

[٢٤ ا] مع التطويل / الممل ، ولكن خير الأمور أوساطها .

تنوير :

ولا يحذف من المقاييس إلا ما يكون فى قوة الكلام دليل عليه : من مقدمة ، أو نتيجة ، أو قضية مستثناة .

وهذا المحذوف قد يكون القصدُ به طيَّ المقدمة التى يظهر فيها الكذب .

وقد تكون مقدمات القياس كلها صادقة وتطوى إحداها لما ذكرْتُه من قصد التخفيف خاصة .

إضاءة :

وقد يكون اقتضاء ما أبقى من القياس لما أميط عنه اقتضاءً صحيحا . وقد يكون غير مقتض له فى الحقيقة ويظهر فى بادى الرأى أنه مقتضٍ له على الصحة ، وأكثر ما يكون هذا فى الاستثناءات الشرطية نحو قول مرئ القيس[1] :

وإنْ كُنْتِ قد ساءتكِ منىّ خليقـــةٌ
فسُلِى ثيـــابى مِنْ ثيـــابك تنْسُلِ

فى قوة هذا الكلام على ما يترامى إليه غرض القول أن يكون الاستثناء نقيض المقدم والنتيجة نقيض التالى :

أى لكنك لم تَسُؤكِ منى خليقة – فيوهم أنه منتج : فلا تسلى ثيابى من ثيابك .

وهذا استثناءٌ وإنتاجٌ غير صحيحين ، وإنما يستعمل هذا فى الخطابة على جهة الإقناع . وإنما تصح نتيجة الشرطية المتصلة إذا استثنى فيها عينُ المقدم فأنتج عينُ التالى ، أو استثنى نقيض التالى فأنتج نقيض المقدم .والمقدم هى القضية التى تلى حرف الشرط ، والتالى هى القضية التى تكون جوابا للشرط .

تنوير :

فإذا كان الاستثناء والإنتاج على هذا النحو الذى ذكرته آخراً ، وكانت القضايا صحيحة مسلّمة ، كان القياس صحيحا ، وكان لزوم النتيجة لما تقدمها من أجزاء القياس واجبا ؛ لأن القياس قول مؤلَّفٌ من مقدمات وقضايا إذا كانت مُسَلَّمةً ورتبت الترتيب الذى يجب فى القياس الصحيح ، لزم عن ذلك القول المرتب لذاته قول آخر يسمى : نتيجة .

---

(١) راجع ديوانه ص ١٣ (نشره الأستاذ أبى الفضل إبراهيم ، القاهرة سنة ١٩٥٨) . وقوله : « سلى ثيابى من ثيابك » معناه : أخرجى أمرك من أمرى . ونسل الريش ينسل وينسل : سقط .

إضاءة :

فما كان من الأقاويل القياسية مبنيًّا على تخييل وموجودة فيه المحاكاة فهو يُعَدّ قولا شعريا ، سواء كانت / مقدماته برهانية أو جدلية أو خطابية ، يقينية ٢٤ب
أو مشتهرة أو مظنونة .

وما لم يقع فيه من ذلك محاكاة فلا يخلو من أن يكون مبنيًّا على الإقناع وغلبة الظن خاصة ، أو يكون مبنيا على غير ذلك .

فإن كان مبنيًّا على الإقناع خاصة كان أصيلا فى الخطابة دخيلا فى الشعر سائغا فيه .

وما كان مبنيًّا على غير الإقناع بما ليس فيه محاكاة فإن وروده فى الشعر والخطابة عبث وجهالة ، سواء كان ذلك صادقا أو مشتهراً أو واضح الكذب .

تنوير :

وأكثر ما يُستدل فى الشعر بالتمثيل الخطابى : وهو الحكم على جزئىّ بحكم موجود فى جزئى آخر يماثله . نحو قول حبيب :

أخرجتموه بكَرْه مِن سَجِيَّته ... والنار قد تُنْتَضَى [1] من ناضر السلمِ

فالأقاويل التى بهذه الصفة خطابية بما يكون فيها من إقناع ، شعرية بكونها ملتبسة بالمحاكاة والخيالات .

إضاءة :

والاستدلالات الواقعة فى الشعر والأمثال المضروبة فيه إنما تجىء لبعض ما فى الكلام أو لما قد أشير إليه مما هو خارج عنه : فهى إما محاكاة لمتنوعاتها ، أو تخييلات فيها أو من أجلها .

فكثيرٌ من الأمثال أيضا يكون قولا شعريا ، ويكون منها ما هو قول حق ، ومنها ما ليس بحق ، كما كان ذلك فى المحاكاة والاستدلالات .

---

(١) تنتضى : تخرج ، تستخرج .

تنوير :

وإنما اتُّسع فى المحاكيات الشعرية على هذه الأنحاء التى أشرت إليها وعلى ما نذكره بعد فى أصناف المحاكيات وكيفيات التصرف فيها — فى لسان العرب خاصة ، فلذلك وجب أن توضع لها من القوانين أكثر مما وضعت الأوائل . فإن الحكيم أرسطاطاليس ، وإن كان اعتنى بالشعر بحسب مذاهب اليونانية فيه ، ونبّه على عظيم منفعته وتكلم فى قوانين فنّه ، فإن أشعار اليونانية إنما كانت أغراضا محدودة فى أوزان مخصوصة ومدار جل أشعارهم على خرافات كانوا يصنعونها / يفرضون فيها [٢٥ ا]
وجود أشياء وصور لم تقع فى الوجود ، ويجعلون أحاديثها أمثالا وأمثلة لما وقع فى الوجود .

وكانت لهم أيضا أمثال فى أشياء موجودة نحواً من أمثال : « كليلة ودمنة » ، ونحواً مما ذكره النابغة من حديث الحية وصاحبها .

وكانت لهم طريقة أيضا — وهى كثيرة فى أشعارهم — يذكرون فيها انتقال أمور الزمان وتصاريفه ، وتنقل الدول وما تجرى عليه أحوال الناس وتؤول إليه .

فأما غير هذه الطرق فلم يكن لهم فيها كبير تصرف : كتشبيه الأشياء بالأشياء فإن شعر اليونانيين ليس فيه شىء منه ، وإنما وقع فى كلامهم التشبيه فى الأفعال ، لا فى ذوات الأفعال .

ولو وَجد هذا الحكيم — أرسطو — فى شعر اليونانيين ما يوجد فى شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع فى فنون الكلام لفظا ومعنى ، وتبحرهم فى أصناف المعانى وحسن تصرفهم فى وضعها ووضع الألفاظ بإزائها وفى إحكام مبانيها واقترانانها ولطف التفاتاتهم وتمثيلاتهم واستطراداتهم وحسن مآخذهم ومنازعهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا — لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية .

لأن أبا على ابن سينا قد قال[1] عند فراغه من تلخيص كتابه فى الشعر :

« هذا هو تلخيص القدر الذى وُجد فى هذه البلاد من « كتاب الشعر » للمعلم الأول . وقد بقى منه شطر صالح . ولا يبعد أن نجتهد نحن فنبتدع فى علم

(١) راجع كتابنا : « ارسطوطاليس : فن الشعر » ص ١٩٨ ، القاهرة سنة ١٩٥٣ .

الشعر المطلق ، وفى علم الشعر بحسب عادة هذا الزمان ، كلاماً شديد التحصيل والتفصيل . وأما ههنا فلنقتصر على هذا المبلغ » . — انتهى كلام ابن سينا . وفى كلامه إشارة إلى تفخيم علم الشعر ، وما أبدت فيه العرب من العجائب ، وإلى كثرة تفاصيل الكلام فى ألفاظه ومعانيه ونظمه وأساليبه واتساع مجال القول فى ذلك .

إضاءة : [٢٥ ب]

وقد ذكرتُ فى هذا الكتاب من تفاصيل هذه الصنعة ما أرجو أنه من جملة ما أشار إليه أبو على ابن سينا . وقد تركت من ذلك أشياء لم يمكنّى الكلام فيها لكون بعض أغراض النفس تحثُّ على الانحفاز فى التأليف وتعجيل الإتمام له ، ولأن استقصاء القول فى هذه الصناعة مُحْوِج إلى إطالة تتخوّنُ أزمنة الناظر وتعوقه عما يجب أن يترقى إليه فى هذه الصناعة من العلوم النافعة . فإن النظر فى أسرار هذه الصناعة مفتاحٌ للنظر فى تلك ومِرْقاة لها .

وإنما نحب أن نقتصر فى التأليف من هذه الصناعة على ظواهرها ومتوسطاتها ونُمْسك عن كثير من خفاياها ودقائقها ، لأن مرام استقصائها عسيراً جدًّا مضطر إلى الإطالة الكثيرة ؛ ولأن هذه القوانين الظاهرة والمتوسطة أيضا مَنْ فهمها وأحكم تصورها أو عرفها حق معرفتها أمكنه أن يصير منها إلى خفايا هذه الصنعة ودقائقها ، ويَعْلم كيف الحكمُ فيما تشعب من فروعها ، فيحصل له جميعُ الصنعة وأكثرها بطريق مختصر .

والله ولى الإرشاد لمن استرشده .

تنوير :

وإنما صح أن تقع الأقاويل الصادقة فى الشعر . ولم تصح أن تقع فى الخطابة . ما لم يُعْدَل بها عن الإقناع إلى التصديق .

لأن ما تتقوّم به صنعة الخطابة — وهو الإقناع — مناقض للأقاويل الصادقة .

إذ الإقناع بعيد من التصديق فى الرتبة . والشعر لا يناقض اليقين ما يتقوّم به — وهو التخييل — ، فقد يُخَيَّل الشىءُ ويمثّل على حقيقته . فلذلك وجب أن يكون فى الكلام المخيل صدقٌ وغيرُ صدق ، ولا يكون فى الكلام المقنعِ ما لم يعدل به إلى التصديق — إلا الظنّ الغالب خاصة ، والظن مناف لليقين .

فالشعر إذن قد تكون مقدماته يقينية ومشهورة ومظنونة . ويفارق البرهان والجدل والخطابة بما فيه من التخييل والمحاكاة ويختص بالمقدمات الموهمة[1] الكذب ؛
فيكون شعرا أيضا ما هذه صفته باعتبار ما فيه من المحاكاة والتخييل ، لا من جهة [٢٦ ا]
ما هو كاذب . كما لم يكن شعرا من جهة ما هو صادق ، بل بما كان فيه أيضا من التخييل . فلاختصاص الشعر باستعمال المحاكاة فى المقدمات الكاذبة ما يقصر على النسبة إليه كلُّ كلام مخيل مقدماته كاذبة ، فيقال : كلام شعرى — إذ هو المختص باستعمال المقدمات الكاذبة من حيث يخيل فيها أو بها ، لا من حيث هى كاذبة ، وإن شارك جميع الصنائع فيما اختصت به ، وكان له أن يخيل فى جميع ذلك . فالتخييل هو المعتبر فى صناعة ، لا كون الأقاويل صادقة أو كاذبة .

معرف دال على المعرفة بماهية الشعر وحقيقته :

الشعر : كلام موزون مقفى ، من شأنه أن يُحبِّب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ويُكرّه إليها ما قصد تكريهه ، لتُحْمَل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من حسن تخييل له ، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام ، وقوة صدقه ، أو قوة شهرته ، أو بمجموع ذلك . وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب ، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قَوِى انفعالها وتأثرها .

إضاءة :

فأفضل الشعر ما حَسُنَتْ محاكاته وهيئته ، وقويت شهرته أو صدقه ، أو خفى كذبه وقامت غرابته . وإن كان قد يعد حذقا للشاعر اقتدارُه على ترويج

---

(١) ص : المموهة .

الكذب وتمويهه على النفس وإعجالها إلى التأثر له قبل إعمالها الروية فيما هو عليه — فهذا يرجع إلى الشاعر وشدة تخيله فى إيقاع الدلّـه[١] للنفس. فى الكلام . فأما أن يكون ذلك شىء يرجع إلى ذات الكلام ، فلا .

وأردأ الشعر : ما كان قبيح المحاكاة والهيئة ، واضح الكذب ، خلياً من الغرابة. [٢٦ ب] وما أجدر ما كان / بهذه الصفة ألاّ يسمى : شعراً ، وإن كان موزونا مقفى ! إذ المقصود بالشعر معدوم منه . لأن ما كان بهذه الصفة من الكلام الوارد فى الشعر لا تتأثر النفس بمقتضاه . لأن قبح الهيئة يحول[٢] بين الكلام وتمكنه من القلب . وقبح المحاكاة يغطى على كثير من حسن المحاكى أو قبحه ، ويشغل عن تخيل ذلك ، فتجمد النفس عن التأثر له ؛ ووضوح الكذب ينزعها عن التأثر بالجملة .

تنوير :

فإن حسنت الهيئة والمحاكاة ولم يكن الكذب شديد الوضوح خادعا النفس عما تستشعره أو تعتقده من الكذب ، حركاها إلى اعتماد الشىء بفعل أو اعتقاد أو التخلى عنه ، تحريك مغالطة ؛ وهذا أدنى مراتب الشعر ، إذْ لم يعتدّ بما ذكرناه أولا .

إضاءة :

وإنما يرجع الشاعر إلى القول الكاذب حيث يعوزه الصادق والمشتهر بالنسبة إلى مقصده فى الشعر . فقد يريد تقبيح حسن وتحسين قبيح فلا يجد القول الصادق فى هذا ولا المشتهر ، فيضطر حينئذ إلى استعمال الأقاويل الكاذبة .

تنوير :

فأمّا إذا قصد تحسين حَسَن وتقبيح قبيح فإنه متمكن من القول الصادق والمشهور فيها .

وأكثر أقوال الشعراء فى هذين القسمين ، إذا لم يقصدوا المبالغة فيما يحاكونه

---

(١) ص : الدلسة .
(٢) ص : يكون (وعليها ترميج) .
(٣) ص : وحركاها .

ويصفونه ، صادقة . اللهم إلا أن يقصدوا المبالغة فى تحسين حسن أو تقبيح قبيح فيتجاوزون حدود أوصافه الحقيقية ويحاكونه بما هو أعظم منه حالا أو أحقر ليزيد النفوس استمالةً إليه أو تنفيراً عنه .

إضاءة :

ولا يخلو الشىءُ الحسنُ من أن يكون أحسن ما فى معناه . أو أن يكون ثَمَّ ما هو أحسن منه . وكذلك القبيح قد يوجد أقبح منه ، أو لا يوجد .

فالحسَن : الذى لا أحسن منه ؛ والقبيح : الذى لا أقبح منه . ولا يوجد مساو لهما فى معنييهما ، لا ينبغى أن تكون الأقوال فيهما صادقةً فى الأولى والأكثر . فإن محاكاته بما هو دونه تقصير به وليس هناك إلى ما يطمح به .

/ فأما الحسن والقبيح اللذان يوجد فى معناهما ما هو أعظم منهما أو ما يساويهما، [٢٧ ١]
فإن الأقاويل الشعرية ترد فيهما صادقة وكاذبة بحسب ما يعتمده الشاعر من اقتصاد فى الوصف أو مبالغة .

تنوير :

وإذا حقق القول وجدت الأقاويل أيضًا فى تقبيح الحسن وتحسين القبيح قد تكون صادقة ، لأن كل شىء حسن يقصد محاكاته وتخييله ، وإن كان أحسن ما فى معناه ، فقد يوجد فيه وصف مستقبح .

وكذلك الشىء القبيح فإنه وإن كان لا أقبح منه يوجد فيه وصف مستحسن . فقد قال الجاحظ : « ليس شىء إلا وله وجهان وطريقان : فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين ، وإذا ذموا ذكروا أقبحهما » .

وأنا أذكر الأنحاء التى يترامى إليها صدق الشعر أو كذبه بما يقتضيه أصل الصناعة ويوجبه ، وهو الذى يعتمده المطبوعون من الشعراء ، وهى ثمانية أنحاء :

تحسينُ حسَنٍ لا نظير له : فهذا يجب أن تكون الأقاويل فيه صادقةً .

وكذلك تقبيح القبيح الذى لا نظير له .

وتحسين حسَن له نظير . وكثيراً ما يقع فى هذا أيضا الصدق إذا اقتصد فى

أوصافه واقتصر على الوقوف عند حدودها . وكذلك أيضا إذا اقتصد فى محاكاته بغيره واقتصر به على المشابهة دون الغاية التى يطمح فيها عن محاكاة الشىء بالشىء إلى قول هو هو .

وفرق بين قولك[١] . . . إنه مثله وشبهه إذا لم تُرِدْ فى نفسك معنى التشبيه وتكون قد حذفت الحرف الدال عليه إيجازا ، بل أردت أن تصير به اثنينية شيئين اتحاداً .

وهذا يكون فى المشابهة وغيرها .

قال أبو على ابن سينا : المجانسة : اتحاد فى الجنس .

والمشاكلة : اتحاد فى النوع .

والمشابهة : اتحاد فى الكيف .

والمساواة : اتحاد فى الكم .

والموازاة : اتحاد فى الوضع .

والمطابقة : اتحاد فى الأطراف .

[٢٧ ب] والهو هو : اتحادٌ فى شىء من اثنين ، بجعل اثنين فى الوضع تصير به اثنينيتهما اتحاداً بنوع من الاتحادات الواقعة بين اثنين مما قيل .

فما وضع من الأوصاف والمحاكاة مقتصداً فيه غير متجاوز فهو قول صدق .

فإذا قيل فى الشىء : إنه كالشىء وكان فيه شَبَهٌ منه، فهو قول حق ، لأنَ الكافَ وحروف التشبيه إنما وضعت لأن تدل على الشَّبَه من حيث إنه موجودٌ ، قلّ أو كَثُر ، لا من حيث الكمية ، فقد يقوى الشبه ويضعف ، وتكون المحاكاة مع ذلك صادقة إلا أنها فى أحد الحالين أوضح .

وكثير من الناس يغلط ، فيظن أن التشبيه والمحاكاة من جملة كذب الشعر ، وليس كذلك ، لأن الشىْ إذا أشبه الشىْ فتشبيهه به صادق . لأن المُشَبِّهَ مُخبِرٌ أن شيئا أشبه شيئاً ، وكذلك هو بلا شك . ولأن التشبيه بإظهار الحرف وإضماره قول صادق ، إذا كان فى أحد الشيئين شَبَهٌ من الآخر — وَرَد التشبيهُ فى القرآن لأن الماء يشبه السراب بلا شك ، والهلال شبيه بالعرجون القديم ولا بُد

---

(١) فى الهامش استدراك لا يقرأ .

وكذلك جميع تشبيهات الكتاب العزيز الشَّبَه فيها ظاهر .

فقد تبين أن الوصف والمحاكاة لا يقع الكذب فيهما إلاّ بالإفراط وترك الاقتصاد .

وحكم تقبيح القبيح الذى له نظير حُكْمُ ضده الذى فرغت منه .

وقد يقع الصدق أيضا فى تحسين القبيح ؛ ووقوعه فيما هو الغاية فى القبح أقلُّ من وقوعه فيما هو دون الغاية من ذلك . وكذلك حكم تقبيح الحسن ، فإن الصدق فيما هو الغاية فى ذلك أقل منه فيما دونها .

وستأتى لهذا زيادة بيان .

إضاءة :

ولنقسم الآن الكلام الشعرى بالنسبة إلى الصدق والكذب القسمة التى يتبين بها كيف يقع الكذب فى صناعة الشعر ، وما الذى يسوغ منه فيها وما لا يسوغ .

فأقول : إن الأقاويل الشعرية منها ما هو صدق محض ، ومنها ما هو كذب محض ، ومنها ما يجتمع فيه الصدق والكذب .

والكذب منه ما يعلم أنه كذب من ذات القول ، ومنه ما لا يعلم كذبه / من [٢٨ ا]
ذات القول . فالذى لا يعلم كذبه من ذات القول ينقسم إلى : ما لا يلزم علم كذبه من خارج القول ، وإلى : ما يعلم من خارج القول أنه كذب ولا بد .

فالذى لا يعلم كذبه من ذات القول وقد لا يكون طريق إلى علمه من خارج أيضا : هو الاختلاق الإمكانى . وأعنى بالاختلاق : أن يدعى الإنسان أنه محبٌّ ويذكر محبوبا تيمه ومنزلاً شجاه ، من غير أن يكون كذلك . وعَنَيْتُ بالإمكان : أن يذكر ما يمكن أن يقع منه ومن غيره من أبناء جنسه ، وغير ذلك مما يصفه ويذكره .

والذى يُعْلَم من خارج القول أنه كذب ولا بد : الاختلاق الامتناعى ، والإفراط الامتناعى والاستحالى .

والإفراط : هو أن يغلو فى الصفة فيخرج بها عن حد الإمكان إلى الامتناع أو الاستحالة :

وقد فُرق بين الممتنع والمستحيل ، بأن الممتنع : هو ما لا يقع فى الوجود وإن كان مُتَصوراً فى الذهن ، كتركيب يد أسد على رَجُل مثلا . والمستحيل : هو ما لا يصح وقوعه فى وجود ، ولا تصوره فى ذهن ككون الإنسان قائماً قاعداً فى حال واحدة .

فأما الإفراط الإمكانى : فلا يتحقق ما هو عليه من صدق أو كذب ، لا من ذات القول ولا من بديهة العقل . بل يستند العقل فى تحقق ذلك إلى أمر خارج عنه وعن القول . إلاّ أن يدل القول على ذلك بالعـَرض ، فلا يعتد بهذا أيضا . — وإنما نُسميه إفراطا بحسب ما يغلب على الظن .

تنوير :

والاختلاق الإمكانى يقع للعرب فى جهات الشعر وأغراضه . وجهات الشعر : هو ما تُوجـَّه الأقاويل الشعرية لوصفه ومحاكاته مثل : الحبيب ، والمنزل ، والطيف فى طريق النسيب . فمثل هذه الجهات يعتمد وصف ما تعلق بها من الأحوال التى لها علـْقة بالأغراض الإنسانية ، فيكون مسانح لاقتناص المعانى بملاحظة الخواطر لها ، يتعلق بجهة جهة من ذلك .

والأغراض : هى الهيئات النفسية التى يُنـْحى بالمعانى المنتسبة إلى تلك الجهات
[٢٨ ب] نحوها ويمال بها فى صغـْوها / لكون الحقائق الموجودة لتلك المعانى فى الأعيان مما يُهيئ النفس بتلك الهيئات ، ومما تطلبه النفس أيضا أو تهرب منه ، إذا تهيأت بتلك الهيئات .

وسيأتى لهذا فضلُ بيان فى القسم الرابع إن شاء الله .

إضاءة :

والاختلاق الامتناعى ليس يقع للعرب فى جهة من جهات الشعر أصلا .

وكان شعراء اليونانيين يختلقون أشياء يبنون عليها تخاييلهم الشعرية ويجعلونها جهات لأقاويلهم ، ويجعلون تلك الأشياء التى لم تقع فى الوجود كالأمثلة لما وقع فيه ، ويبنون على ذلك قـَصَصًا مخترعًا نحو ما تحدّث به العجائزُ الصبيانَ فى أسمارهم من الأمور التى يمتنع وقوع مثلها .

وقد قال[١] أبو على ابن سينا : « وقد كان يستعمل فى طراغوذيا أيضا جزئيات فى بعض المواضع مخترعة على قياس المسميات الموجودة ، ولكن ذاك من النادر القليل. فى النوادر [٢] قد كان يخترع اسم شئ لا نظير له من الوجود ويوضع بدل معنى كلى » .

وقد ذم ابن سينا هذا النوع [٣] من الشعر فقال[٤] : « ولا يجب أن يحتاج فى التخييل الشعرى إلى هذه الخرافات البسيطة التى هى قصص مخترعة » . وقال أيضا : « إن هذا ليس مما يوافق جميع الطباع » .

تنوير :

فأما أغراض الشعر المنوطة بالجهات المذكورة ، فإن العرب كانت لها فيها اختلاقات : منها اقتصادية ، ومنها إفراطية .

والإفراطية : منها ممكنة ، وممتنعة ، ومستحيلة .

فالكذب الاختلاقى فى أغراض الشعر لا يعاب من جهة الصناعة لأن النفس قابلة له ، إذ لااستدلال على كونه كذبا من جهة القول ولا العقل . فلم يبق إلا أن يعاب من جهة الدين . وقد رفع الحرج عن مثل هذا الكذب أيضا فى الدين ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينشد النسيب ؛ أما فى المدح فيصغى إليه ويثيب عليه .

والكذب الإفراطى متعيبٌ فى صنعة الشعر إذا خرج عن حد الإمكان إلى الامتناع أو الاستحالة .

والإفراط : هو القسم الذى / يجتمع فيه الصدق والكذب . فإن الشاعر إذا [٢٩ أ]
وصف الشئ بصفة موجودة فيه ، وأفرط فيها ، كان صادقا من حيث وصفه بتلك الصفة ، وكاذبا من حيث أفرط فيها وتجاوز الحد . فهذا قد يجئ منه ما يستحسنه بعض أرباب هذه الصنعة .

---

(١) راجع « فن الشعر » ص ١٨٤ .

(٢) فى « فن الشعر » : « . . . القليل . وفى النوادر قد كان . . . » .

(٣) فى هامش المخطوط : « نسخة : النحو » .

(٤) « فن الشعر » ص ١٨٤ .

وسيأتى تفصيلُ القول فى هذا إن شاء الله .

فأما القسم الثالث ، وهو القول الصادق ، فهو القول المطابق للمعنى على ما وقع فى الوجود .

ومنه المقصر عن المطابقة بأن يدل على بعض الوصف ويقع دون الغاية التى انتهى إليها الشئ من ذلك الوصف .

فهذا النوع من الصدق فى الشعر قبيح من جهة الصناعة وما يجب فيها .

إضاءة :

فأغراض الشعر إذاً منها حاصلة ، ومنها مختلقة .

والحاصلة : منها ما تكون الأقاويل فيها اقتصادية وتقصيرية وإفراطية .

وكذلك المختلقة تكون أقاويلها أيضا اقتصادية وتقصيرية وإفراطية .

والإفراطية : منها إمكانية ومنها امتناعية ومنها استحالية . يتركب منها عشرة أصناف :

صنفان منها صادقان : وهى الحاصلة التى أقاويلها اقتصادية ، والحاصلة التى أقاويلها تقصيرية .

وصنف يحتمل الصدق والكذب : وهى الحاصلة التى أقاويلها إمكانية .

وسبعة أصناف كاذبة : وهى الحاصلة التى أقاويلها ممتنعة ، والحاصلة التى أقاويلها مستحيلة ، والمختلقة التقصيرية ، والاقتصادية ، والإمكانية ، والامتناعية ، والاستحالية .

فهذه قسمتها بالنسبة إلى الصدق والكذب .

تنوير :

وتنقسم من جهة ما يستحسن فى الشعر ويستساغ ، ومن جهة ما يستساغ ولا يستحسن ، ومن جهة ما لا يستساغ ولا يستحسن ، إلى اثنى عشر قسماً :

أربعة منها مستحسنة : وهى الحاصلة التى أقاويلها اقتصادية ، والحاصلة التى أقوالها إمكانية ، والمختلقة التى أقاويلها اقتصادية ، والمختلقة التى أقاويلها إمكانية .

[٢٩ ب] / وقسمان منها مستساغان غير مستحسنين ، وهما :

الحاصلة التى أقوالها امتناعية ، والمختلقة التى أقاويلها امتناعية أيضا .

وأربعة منها غير مستساغة ولا مستحسنة ، وهى :

الحاصلة التقصيرية ، والحاصلة الاستحالية ، والمختلقة التقصيرية ، والمختلقة الاستحالية .

فقد ثبت بهذا أن للاستساغة فى الكلام الشعرى ستة مذاهب ، وللاستحسان أربعة مذاهب ، وللصدق ثلاثة مذاهب .

كل هذه المذاهب الاستساغية والاستحسانية والصدقية تقع فى جميع أنحاء الشعر الثمانية ، وهى :

تحسين حَسَن له نظير ،

وتحسين حَسَن لا نظير له ؛

وتقبيح قبيح له نظير ،

وتقبيح قبيح لا نظير له ؛

وتحسين قبيح له نظير ،

وتقبيح حسن لا نظير له .

فالصدق فى جميعها يدخل من ثلاثة مذاهب ، على ما بينته ، وهو أكثر وقوعاً فى بعض هذه الأنحاء منه فى بعض، كما تقدم .

إضاءة :

وإنما احتجت إلى إثبات وقوع الأقاويل الصادقة فى الشعر لأرفع الشبْهة الداخلة فى ذلك على قوم ، حيث ظنوا أن الأقاويل الشعرية لا تكون إلا كاذبة . وهذا قول فاسد قد أورده أبو على ابن سينا فى غير ما موضع من كتبه .

لأن الاعتبار فى الشعر إنما هو التخييل فى أى مادة اتفق ، لا يشترط فى ذلك صدق ولا كذب ، بل أيّهما ائتلفت الأقاويل المخيلة منه ، فبالعَرَض. لأن صنعة الشاعر هى جودة التأليف وحسن المحاكاة ، وموضوعها الألفاظ وما تدل عليه .

فالصدق والكذب والشهرة والظن ، أشياء راجعة إلى المفهومات التى هى شطر

الموضوع ، فنسبتها إلى المدلولات التى هى المعانى كنسبة العمومية والحوشية والحال الوسطى بينهما والغرابة—إلى الأدلة التى هى الألفاظ . وكل هذه الأصناف من الألفاظ تقع فى الشعر ، وصناعة الشاعر فيها حسن التأليف والهيئة . كما أن تلك المواد تقع فيه ، وصناعة الشاعر فيها حسن / المحاكاة والنسب والاقترانات الواقعة [٣٠ ا] بين المعانى . وكما أن الألفاظ المستعذبة المتوسطة فى الاستعمال أحسن ما يستعمل فى الشعر لمناسبتها الأسماع والنفوس ، وحسن موقعها منهما . ثم إن الشاعر مع ذلك يستعمل الحوشى والساقط تسامحا واتساعا ، حيث تضطره الأوزان والقوافى ؛ فكذلك المعانى التى تكون الأقاويل فيها صادقة أو مشتهرة ، أفضل ما يستعمل فى الشعر لكونها تحرك النفوس إلى ما يراد منها تحريكاً شديداً .

وليست تحرك الأقاويل الكاذبة إلا حيث يكون فى الكذب بعض خفاء أو[1] يحمل النفس شدة ولعها بالكلام لفرط ما أبدع فيه على الانقياد لمقتضاه ، وإن كان مما يكره ولا يصدق الحاض عليه . ومع هذا فتحريكها دون تحريك الأقاويل الصادقة إذا تساوى فيها الخيال وما يعضده مما داخل الكلام وخارجه . فتحريك الصادقة عام فيها قوىٌّ ، وتحريك الكاذبة خاص فيها ضعيف . وما عم التحريك فيه وقوى كان أخلق بأن يجعل عمدة فى الاستعمال حيث يتأتى . كما أن ما عَذُب من الألفاظ ولم يكن حوشيا ولا عاميا أجدرُ أن يُعْتَمَد فى الشعر من غيره . لكن الشاعر أيضا يضطر حيث يريد تحسين قبيح أو تقبيح حسن أو تتميم ناقص بالنسبة إلى ما يراد منه بالمبالغة فى وصفه لتزيد النفوسَ زيادةُ الوصف تحريكا ، فيستعمل حينئذ الأقاويل الكاذبة وما لا يوقع الصدق كما يستعمل الحوشى والعامى من الألفاظ مضطراً فى ذلك ، أو مسامحة للفكر فيما يقتضيه من المعانى أو يجتلبه من الألفاظ عفواً دون كد ؛ أو لأن يرى بعض الأحوال المقدرة التى يتخيلها أهزّ من الأحوال التى وقعت له ، فيبنى قوله على الحال المخيلة الممكنة دون الواقعة ، ليكون الكلام بذلك أشدَّ موقعاً من النفس وعلوقاً بالقلب .

تنوير :

[٣٠ ب] فقد تبين أن أفضل المواد المعنوية / فى الشعر ما صدق وكان مشتهرا ، وأحسن

(١) هنا إشارة استدراك فى الهامش غير مقروء .

الألفاظ ما عذب ولم يبتذل فى الاستعمال . وكلامنا أمسى واجباً على الشاعر لزومه ، بل مؤثراً حيث يمكن ذلك .

ويتبين بهذا أن قول من قال إن مقدمات الشعر لا تكون إلا كاذبة ـ كذوبٌ ، وأنه بمنزلة من يقول إن الألفاظ الشعرية لا تكون إلا حوشية ولا تكون مستعملة ، لأن الألفاظ المستعملة والمقدمات الصادقة أولى ما يستعمل فى الشعر حيث يمكن ذلك ويكون الموضع والغرض لائقا به . وما مَثَلُه فى قَصر الشعر على الكذب مع أن الصدق أنجع فيه إذا وافق الغرض إلا مَثَلُ مَنْ مَنَعَ من ذى علة ما هو أشد له موافقة بالنسبة إلى شكاة واقتصر به على أدنى ما يوافقه مع التمكن من هذا وذلك . فإن كان هؤلاء الذين رأيهم هذا نَفَسوا على الشعراء وقوع الصدق فى كلامهم ، فلا خلق أشد نفاسة من هؤلاء . وإن كان جرى عليهم سهو وغلط فى ذلك ، فما أجدر هذه الفطر البشرية والفكر الإنسانية بذلك !

إضاءة :

ولعل الغلط إنما جرى عليهم من حيث ظنوا أن ما وقع من الشعر مؤتلفا من المقدمات الصادقة ، فهو قول برهانى ؛ وما ائتلف من المشهورات ، فهو قول جدلى ؛ وما ائتلف من المظنونات المترجحة الصدق على الكذب ، فهو قول خُطبى : ولم يعلموا أن هذه المقدمات كلها إذا وقع فيها التخييل والمحاكاة كان الكلام قولا شعريا ـ بأن الشعر لا تعتبر فيه المادة ، بل ما يقع فى المادة من التخييل .

وقد قال أبو على ابن سينا : « الأقاويل الشعرية مؤتلفة من المقدمات المخيلة من حيث يعتبر تخييلها ـ كانت صادقة أو كاذبة . وبالجملة تؤلف من المقدمات من حيث لها هيئة وتأليف تقبلها النفس بما فيها من المحاكاة . بل ومن الصدق . فلا مانع من ذلك » .

فانظر[1] تر كيف قرن هذا الإمام الرئيس صدق الشعر بالمحاكاة ، لأن المحاكاة الحسنة فى الأقوال الصادقة وحسن إيقاع / الاقترانات والنسب بين المعانى [٣١ ا]

---

(١) ص : ترى .

مثل التأليف الحسن فى الألفاظ الحسنة المستعذبة .

ثم قال ابن سينا : «ولا يلتفت إلى ما يقال من أن البرهانية واجبة ، والجدلية ممكنة أكثرية ، والخُطْبية ممكنة متساوية لا ميل فيها ولا ندرة ، والشعرية كاذبة ممتنعة — فليس الاعتبار بذلك . ولا أشار إليه صاحب المنطق » .

وقال أبو على أيضا فى موضع آخر :

« وليس يجب فى جميع المخيلات أن تكون كاذبة ، كما لا يجب فى المشهورات وما يخالف الواجب » .

فقوله أن تكون لا محالة واجبة وبالجملة التخييل المحرك من القول متعلق بالمتعجب منه :

إما بجودة هيئته أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو حسن محاكاته .

تنوير :

واعلم أن للأقاويل الشعرية مواطن حقيقةً بتوخى الصدق ، ومواطن لا يليق بها ذلك .

فالحقيقة بالصدق : هى الأقاويل المتعلقة بمناصحة ذوى التصافى .

والتى لا يليق بها ذلك : هى المقصود بها مغاشة ذوى الأضغان . فلا تكون فيما كان نصحا محضا فى الأكثر إلا صادقة .

وإن كان لقاصد[1] النصح أيضا أن يتعرض للكذب النافع فى طريق النصح ، كمن يُحذر قوما من عدو يتوقع إناخته عليهم ، فإن له أن يقرب البعيد ويُكثر القليل فى ذلك ليأخذوا لأنفسهم بالحزم والاحتياط . ولا تكون فيما قصد به الغش إلا كاذبة .

وأكثر ما يمال بالأقاويل الشعرية فى صغوى الصدق والكذب بحسب هذين المقصدين فى مواطن إدارة الآراء والإشارة بوجوه الحيل والمكايد والتدبير لما يستقبل ويتوقع :

وهذه الأقاويل هى التى يسميها أبو على ابن سينا « بالمشوريات » .

---

(١) ص : القاصد .

إضاءة :

فقد تبين من هذا ومما قبله أن الشعر له مواطن لا يصلح فيها إلا استعمال الأقاويل الصادقة ؛

ومواطن لا يصلح فيها إلا استعمال الأقاويل الكاذبة ؛

ومواطن يصلح فيها استعمال الصادقة والكاذبة ، واستعمال الصادقة أكثر وأحسن ؛

ومواطن يحسن فيها استعمال الصادقة والكاذبة ، واستعمال / الكاذبة أكثر وأحسن ؛ [٣١ ب]

ومواطن تستعمل فيها كلتاهما من غير ترجح :

فهى خمسة مواطن ، لكل مقام منها مقال .

وقد بين أبو على ابن سينا كون التخييل لايناقض اليقين . وكون القول الصادق فى مواضع كثيرة أنجع من الكاذب . فقال :

« والمخيل : هو الكلام الذى تذعن له النفس فتنبسط لأمور أو تنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار . وبالجملة تنفعل له انفعالا نفسانيا غير فكرى ، سواء كان القول مصدَّقًا به أو غير مصدق به .

فإن كونه غير مصدقا به غير كونه مخيلا أو غير مخيل . فإنه قد يصدق بقول من الأقوال ولا ينفعل عنه ، فإن قيل مرة أخرى أو على هيئة أخرى انفعلت النفسُ عنه طاعة للتخييل لا للتصديق ، فكثيرا ما يؤثر الانفعال ولا يحدث تصديقا . وربما كان المتيقن كذبه مخيلاً . وإن كانت محاكاة الشىء لغيره تحرك النفس وهو كاذب ، فلا عجب أن تكون صفة الشىء على ما هو عليه تحرك النفس وهو صادق ، بل ذاك أوجب ، لكن الناس أطوع للتخييل منهم للتصديق . وكثير منهم إذا سمع التصديقات استكرهها وهرب منها. وإنما كان[1] (للتخييل) شىء من التعجيب ليس للصدق لأن الصدق المشهور كالمفروغ منه ولا طراءة له والصدق المجهول غير ملتفت إليه . والقول الصادق إذا حرفه عن العادة والحق فى شىء تستأنس به

(١) غير واضحة القراءة فى المخطوط .

النفس فربما أفاد التصديق والتخييل معا .

وربما شغل التخييل عن الالتفات إلى التصديق والشعرية » .

وقال[١] أبو نصر فى كتاب الشعر :

« الغرض المقصود بالأقاويل المخيّلة أن ينهض السامع نحو فعل الشىء الذى قيل له فيه أمرٌ[٢] طلب له أو هرب عنه » .

ثم قال : « سواء صدق بما يخيل إليه من ذلك أوْ لا كان الأمر فى الحقيقة على ما خيل له أو لم يكن » .

فأنت ترى هذين الرجلين كيف جعلا التخييل قد يكون بما هو حقيقة فى الشىء ، وقد يكون بما لا حقيقة له .

[٣٢ ا] تنوير :

وإنما غلط فى هذا فظنّ أن الأقاويل الشعرية لا تكون إلا كاذبة — قومٌ من المتكلمين لم يكن لهم علم بالشعر ، لا من جهة مزاولته ولا من جهة الطرق الموصلة إلى معرفته .

ولا مُعرَّج على ما يقوله فى الشىء منْ لا يعرفه ولا التفات إلى رأيه فيه ، فإنما يُطلب الشىء من أهله ، وإنما يقبل رأى المرء فيما يعرفه ؛ وليس هذا جرحة للمتكلمين ولا قدحًا فى صناعتهم . فإن تكليفهم أن يعلموا من طريقتهم ما ليس منها شطط .

والذى يورطهم فى هذا أنهم يحتاجون إلى الكلام فى إعجاز القرآن ، فيحتاجون إلى معرفة ماهية الفصاحة والبلاغة من غير أن يتقدم لهم علم بذلك ، فيفزعون إلى مطالعة ما تيسر لهم من كتب هذه الصناعة . فإذا فرق أحدهم بين التجنيس والترديد وماز الاستعارة من الأوصاف ، ظن أنه قد حصل على شىء من هذا العلم فأخذ يتكلم

---

(١) لم يرد هذا القول فى رسالة الفارابى بعنوان « رسالة فى قوانين صناعة الشعر » التى نشرناها فى « فن الشعر » ، وإنما هو مأخوذ من كتاب آخر للفارابى لعله كتاب « فى الشعر والقوافى » الذى ذكره ابن أبى أصيبعة (جـ ٢ ص ١٣٩ س ١٠ من أسفل) .

(٢) كلمة واحدة غير مقروءة .

فى الفصاحة بما هو محض الجهل بها . ومثلُهم فى هذا مثل رجل شاهدتُ له هذه القصة التى أذكرها بمرسية :

وذلك أنه مرض له صاحب كان يعز عليه ويرى فى حياته حياته ؛ ولم يكن له علم بالطب ولا تقدم نظر فيه ، ففزع فى الحين إلى استعارة كتب الطب والنظر فيها ليعالج صاحبه المريض . فانسلخت عنه الليلة وهو يتعاطى فى غدها من المعانى الطبية ما لم يكن يتعاطاه فى أمسه إذ كان قد ظن أنه قد اكتسب معرفة صناعة الطب من ليلته ؛ ثم شرع من صبيحته فى معالجة صاحبه المريض فقضى عليه فى اليوم الثانى بثريدة أطعمها إياه رأى أنها تصلح به .

فكما أن هذا الرجل أصبح جالينوسا من ليلته كذلك يريد المتكلم[١] فى الفصاحة من المتكلمين أن يصبح من ليلته جاحظا وقُدامة[٢] إن شاء :

وإنَّ كلامَ المرءِ ما لم تكن لـه حصَاةٌ – على عوراته لدليـل

إضاعة : [٣٢ ب]

وكيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها فى الزمن القريب وهى البحر الذى لم يصل أحدٌ إلى نهايته مع استنفاد الأعمار فيها ! وإنما يبلغ الإنسانُ منها ما فى قوته أن يبلغه . ألا ترى أن كثيرا من العلوم قد نَفِدَ فيها قومٌ فى أزمنة لا تستغرق إلا جزءاً يسيرا من العمر ؟ ! وهذا أبو الطيب المتنبى وهو إمام فى الشعر لم يستقم[٣] بأوّلة الصناعة عشرين سنة ثم زاولها بعد ذلك زمنًا طويلاً وتوفى وهو يصيب فيها ويخطئ . وهذا ليس مختصا به وحده ، بل كل إمام ناظم أو ناثر هذه غايته ، إذ كانت هذه الصناعة تتشعب وجوه النظر فيها إلى ما لا يحصى كثْرة . فقلما يتأتى تحصيلها بأسرها والعِلْم[٤] بجميع قوانينها كذلك . وسائرها من العلوم ممكن أن يتحصل كله أو جله . وليس هذا تفضيلاً لصناعة البلاغة على غيرها من العلوم ، إذ ليس يلزم إذا كان علمٌ أشدَّ تشعبًا من علم آخر أن يكون أفضل منه . بل المفاضلة بين العلوم من جهات أخر .

---

(١) ص : وفى .

(٢) يقصد : قدامة بن جعفر .

(٣) كانت : لم يستقم شعره . . . عن مزاولة : ثم رجحها الناسخ وأثبت ما أو ردناه .

(٤) ص : المعلم.

وعلى ما ذكرته فلو قدّرنا أن إنسانًا ذكيًا ينظر فى علم من العلوم شهراً أو عاما لتحصّلت له من ذلك العلم مسائل محققة، ولا يحصل له فى هذا القدر من الزمان من هذه الصناعة شيء يعتد به . إذ أكثر ما يستحسن ويستقبح فى علم البلاغة له اعتبارات شتى بحسب المواضع : فقد يحسن فى موضع ما يقبح فى موضع ، ويقبح فى موضع ما يحسن فى موضع ؛ ولا يقف الإنسانُ على تلك المواضع إلا بطول المزاولة : ولا يُشرِف الإنسان على جُمل من تلك المواضع تمكنه أن يستنبط بها أحكام ما سواها إلا بكثرة الفحص والتنقيب عما يجب اعتماده فى جميع أحوال الصناعة : من إيثار ما يجب أن يؤثر وترجيح ما يجب أن يرجح : بالنظر إلى الشيءُ فى نفسه ، أو النظر إلى ما يقترن به ، أو إلى ما هو خارج عن ذلك مما تقدم التعريف به .

[٣٣ ا] معْلم دال على طرق العـلم بالأشياء المخيـلة

الشعر كلامٌ مخيلٌ موزون ، مختصٌ فى لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك . والتئامه من مقدمات مخيلة ، صادقة كانت أو كاذبة ، لا يشترط فيها — بما هى شعر — غير التخييل .

إضاءة :

والتخييل فى الشعر يقع من أربعة أنحاء :

من جهة المعنى ، ومن جهة الأسلوب ، ومن جهة اللفظ ، ومن جهة النظم والوزن .

وينقسم التخييل بالنسبة إلى الشعر ، قسمين :

تخييل ضرورى ؛

وتخييل ليس بضرورى ، ولكنه أكيد أو مستحب ، لكونه تكميلا للضرورى وعونًا له على ما يراد من إنهاض النفس إلى طلب الشيء أو الهرب منه .

والتخاييل الضرورية : هى تخاييل المعانى من جهة الألفاظ .

والأكيدة والمستحبة : تخاييل اللفظ فى نفسه ، وتخاييل الأساوب ، وتخاييل الأوزان والنظم .[1]

وآكد ذلك : تخييل الأسلوب .

تنوير :

والتخييل : أن يتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيَّل أو معانيه أو أساوبه ونظامه ، وتقوم فى خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها ، أو تصور شىء آخر بها انفعالاً من غير روية إلى جهة من الانبساط أو الانقباض .

إضاءة :

وطرق وقوع التخييل فى النفس : إما أن يكون بأن يتصور فى الذهن شىء من طريق الفكر وخطرات البال ؛

أو بأن تشاهد شيئا فتذكر به شيئا ؛

أو بأن يحاكى لها الشىء بتصوير نحتى أو خطى ، أو ما يجرى مجرى ذلك ؛

أو يحاكى لها صوته أو فعله أو هيئته بما يشبه ذلك ، من صوت أو فعل أو هيئة ؛

أو بأن يحاكى لها معنى بقول يخيله لها ، وهذا هو الذى نتكلم فيه نحن فى هذا المنهج ؛

أو بأن توضع لها علامةٌ من الخط تدل على القول المخيل ؛

أو بأن تفهم ذلك بالإشارة .

[٢٣ ب]

معرَّف دالٌّ على طرق المعرفة
بجهات مواقع التخييل من الأقاويل وما بإزائها من المعانى ،
وما يحسن أن ينْحى بالمحاكاة نحوه من ذلك وما لا يحسن .

وأحسن مواقع التخييل : أن يناط بالمعانى المناسبة للغرض الذى فيه القول ،

(١) كذا فوق السطر و بعدها كلمة « صح » ؛ وفى السطر نفسه : معلم .

كتخييل الأمور السارّة فى التهانى ، والأمور المفجعة فى المراثى . فإن مناسبة المعنى للحال التى فيها القول وشدة التباسه بها يعاون التخييل على ما يراد من تأثر النفس لمقتضاه .

إضاءة :

ويحسّن موقعَ التخييل من النفس ، أن يترامى بالكلام إلى أنحاء من التعجيب ، فيقوى بذلك تأثر النفس لمقتضى الكلام .

والتعجيب : يكون باستبداع ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التى يطلب التهدى إلى مثلها ، فورودها مستندر مستظرف لذلك : كالتهدى إلى ما يقل[1] التهدى إليه من سبب للشىء تخفى سببيته ، أو غاية له ، أو شاهد عليه ، أو شبيه له أو معاند ؛ وكالجمع بين مفترقين من جهة لطيفة قد انتسب بها أحدهما إلى الآخر — وغير ذلك من الوجوه التى من شأن النفس أن تستغربها .

تنوير :

ويجب ألا يسلك بالتخييل مسلك السذاجة فى الكلام . ولكن يتقاذف بالكلام فى ذلك إلى جهات من الوضع الذى تتشافع فيه التركيبات المستحسنة والترتيبات والاقترانات والنسب الواقعة بين المعانى . فإن ذلك مما يشد أزر المحاكاة ويعضدها ولهذا نجد المحاكاة أبدا يتضح حسنها فى الأوصاف الحسنة التناسق المتشاكلة الاقتران المليحة التفصيل ، وفى القصص الحسن الاطراد وفى الاستدلال بالتمثيلات والتعليلات ، وفى التشبيهات والأمثال والحكم بأن هذه أنحاء من الكلام قد جرت العادة فى أن تجهد فى تحسين / هيئات الألفاظ والمعانى وترتيبا تها فيها . [٣٤ ا]

إضاءة :

وإذا كان فى قوة القول البسيط أو القريب من البساطة أن يتخيل منه أشياء

---

(١) ص : يقبل ؛ أو : يضل .

لو وضع اللفظ طبقا لها لم يكن إلا مركبًا حسَنَ الهيئة جرى مجرى ما قبله فى الاستحسان ، وذلك كالتشبيه بغير حرف ، وكالاستعارة ؛ وما جرى مجراهما فى ذلك .

معلم دالّ على طرق العلم بما تنقسم إليه المحاكاة

لا يخلو المحاكى من أن يحاكى موجوداً بموجود أو بمفروض الوجود مُقَدَّره .

ومحاكاة الموجود بالموجود لا تخلو من أن تكون محاكاة شىء بما هو من جنسه ، أو محاكاة شىء بما ليس من جنسه .

ومحاكاة غير الجنس لا تخلو من أن تكون محاكاة محسوس بمحسوس أو محاكاة محسوس بغير محسوس ، أو غير محسوس بمحسوس ، أو مدرك بغير الحس بمثله فى الإدراك .

وكل ذلك لا يخلو من أن يكون محاكاة معتاد بمعتاد ، أو مستغرب بمستغرب ، أو مستغرب بمعتاد .

وكلما قرب الشىء مما يحاكى به كان أوضح شَبَهاً .

وكلما اقترنت الغرابة والتعجب بالتخييل كان أبدع :

إضاءة :

تنقسم التخاييل والمحاكيات بحسب ما يُقْصَد بها إلى :

محاكاة تحسين ، ومحاكاة تقبيح ، ومحاكاة مطابقة لا يقصد بها إلاّ ضرب رياضة الخواطر والمُلَح فى بعض المواضع التى يعتمد فيها وصف الشىء ومحاكاته بما يطابقه ويخيله على ما هو عليه ، وربما كان القصد بذلك ضربًا من التعجيب أو الاعتبار ، وربما كانت محاكاة المطابقة فى قوة المحاكاة التحسينية أو التقبيحية .

فإن أوصاف الشىء الذى يقصد فى محاكاته المطابقة لا تخلو من/أن تكون من قبيل ما يحمد ويذم وإن قل قسطها مثلا من الحمد والذم . والنفس من شأنها أن تميل إلى ما يُحْمَد وتتجافى عما يُذمّ فكأن التخييل بالجملة[1] لم يخل من [٣٤ ب]

(١) يوجد هنا علامة استدراك ، ولكن لم يظهر شىء فى الهامش .

تحريك النفس إلى استحسان. أو إلى استقباح. فلهذا كانت قوةمحاكاة المطابقة فى كثير من المواضع قوة إحدى المحاكاتين التحسينية ، أو التقبيحية . لكنها قسم ثالث على كل حال ، إذ لم تخلص إلى تحسين ولا تقبيح .

وقد ذكر هذا أبو على ابن سينا ، وقسّم المحاكيات هذه القسمة .

تنوير :

ومما تنقسم إليه المحاكاة — وقد كان يليق بهذه القسمة أن تكون مُدْرَجة فى الفصل المُصَدَّر به هذا المعلم فاستدركنا ههنا إذ فاتت هنالك ، وقد اندرج فى هذه أيضاً بعض ما اندرج فى تلك — وذلك أن المحاكاة إما أن تكون محاكاة وجود ، أو محاكاة فرض وكلتاهما لا تخلو من أن تكون محاكاة مطلقة ، أو محاكاة شرط ، أو محاكاة إضافة ، أو محاكاة تقدير وفرض .

ومحاكاة الموجود بالموجود إما أن تكون محاكاة كلى بكلى ، أو جزئى بجزئى ، أو كلى بجزئى ، أو جزئى بكلى .

وكل قسم من هذه : فإما أن يُحاكى فيه محسوس بمحسوس ، أو محسوس بغير محسوس ، أو غير محسوس بمحسوس ، أو غير محسوس بغير محسوس .

ولا يخلو أن يُحاكى الشىء بما هو من نوعه الأقرب. أو جنسه الأقرب أو الأبعد ، أو بغير جنسه .

إضاءة :

وينقسم التخييل — بالنظر إلى متعلقاته — قسمين :

تخيل القول فيه بالقول ،

وتخيل أشياء فى المقول فيه . وفى القول من جهة ألفاظه ومعانيه ونَظْمه وأسلوبه.

فالتخييل الأول يجرى مجرى تخطيط الصور وتشكيلها .

والتخييلات الثوانى تجرى مجرى النقوش فى الصور والتوشية فى الأثواب والتفصيل فى فرائد العقود وأحجارها .

وقد ذكرتُ فى تأليف الألفاظ واقترانات المعانى . وأذكر بعد هذا إن شاء الله

فى الهيئات النظمية وضم بعض الأبيات والفصول إلى بعض فى نسق أجزاء الجهات فى / أسلاك الأساليب مما يستحسن من ضروب الصيغ والهيئات المستحسنة فى [٣٥ ا] جميع ذلك ما يغنى بذكره هناك عن (أن) أنصه لك هنا .

وتلك الصيغ والهيئات : هى التخاييل الثوانى للنفس بما وقع به من تشاكل ذلك فى الكلام[1] ابتهاج ، لأن تلك الصيغ تنميقات للكلام وتزيينات له . فهى تجرى من الأسماع مجرى الوشى فى البرود ، والتفصيل فى العقود من الأبصار .

فالنفوس تتخيل بما يُخيل لها الشاعرُ من ذلك محاسنَ ضروب الزينة ، فتبتهج لذلك : ولهذا نقلوا إلى بعض الهيئات اللفظية التى من هذا القبيل أسماء الصناعات التى هى تنميقات فى المصنوعات فقالوا : الترصيع ، والتوشيح ، والتسهيم ، (من تسهيم البرود) . وكثيرٌ من الكلام الذى ليس بشعرى باعتبار التخييل الأول يكون شعراً باعتبار التخاييل الثوانى — وإن غاب هذا عن كثير من الناس :

تنوير :

وتنقسم المحاكاة — من جهة ما تخيل الشىء بواسطة أو بغير واسطة — قسمين :
قسم يخيل لك فيه الشىء نفسه بأوصافه التى تحاكيه ؛
وقسم يخيل لك الشىء فى غيره .

وكما أن المحاكى باليد قد يمثل صورة الشىء نحتًا أو خطًّا فيُعْرَف المصور بالصورة ، وقد يتخذ مرآة يبدى لك بها تمثال تلك الصورة فتعرف المصور أيضا بتمثال الصورة المتشكل فى المرآة — فكذلك الشاعر تارةً يخيل لك صورة الشىء بصفاته نفسه ، وتارة يخيلها لك بصفات شىء آخر هى مماثلة لصفات ذلك الشىء. فلا بد فى كل محاكاة من أن تكون جارية على أحد هذين الطريقين : إما أن يحاكى لك الشىء بأوصافه التى تمثل صورته ، وإما بأوصاف شىء آخر تماثل تلك الأوصاف فيكون ذلك بمنزلة ما قدمتُ من أن المحاكى للشىء — بأن يصنع له تمثالا يعطى به صورة الشىء المحاكىَ — قد يعطى أيضاً هيئة تمثال الشىء وتخطيطه بأن يتخذ له مرآة يبدى صورته فيها ، فتحصل المعرفة بما لم يكن يعرف إما برؤية تمثاله

---

(١) ص : بما وقع به من ذلك تشاكل فى الكلام ابتهاج .

[٣٥ ب] وإما برؤية صورة تمثاله، فيعرف الشيء / بما يحاكيه أو بما يحاكي ما يحاكيه .

وربما ترادفت المحاكاة وبُني بعضها على بعض فبعُد الكلام عن الحقيقة بحسب ترادف المحاكاة وأدى إلى الاستحالة ، ولذلك لا يستحسن بناء بعض الاستعارات على بعض حتى تبعد عن الحقيقة برُتَب كثيرة ، لأنها راجعة إلى هذا الباب . فمحاكاة الشيء بنفسه هي المحاكاة التي ليست بواسطة، ومحاكاة الشيء بغيره هي المحاكاة التي بواسطة .

إضاءة :

وكل واحدة من المحاكاتين : المتحدة ، والمزدوجة — أعني أن الواحدة تشتمل على محاكى خاصة ، والثانية تشتمل على محاكى ومُحاكى به — تنقسم قسمين :

محاكاة الشيء نفسه على حسب ما ألف فيه؛

ومحاكاة الشيء بغيره على حسب ما ألف فيها، ومحاكاته فيه على غير ما ألف .

وأعني بغير المألوف : أن تكون حاله مستغربة .

ومن محاكاة الشيء بغيره على غير ما ألف فيه قول أبي عمرو بن درّاج :

وسلافة الأعْنـــاب يُشعل نارُهـــا   تُهْدى إلىَّ بيـــانع العنَّـــاب

فالمألوف أن يذوى النبات الناعم بمجاورة النار ، لا أن يونع . فأغربَ في هذه المحاكاة كما ترى .

تنوير :

وللمحاكاة انقسامٌ بحسب تنوعها إلى : المألوف ، والمستغرب ، ومقابلة بعضها ببعض . فيحصل عن ذلك ستة أقسام :

محاكاة حالة معتادة ؛

ومحاكاة حالة مستغربة ؛

ومحاكاة معتاد بمعتاد ؛

ومستغرب بمستغرب ؛

ومعتاد بمستغرب ؛

ومستغرب بمعتاد ؛

ومحاكاة الأحوال المستغربة :

إما أن يقصد بها إنهاض النفوس إلى الاستغراب أو الاعتبار فقط ،

وإما أن يقصد حملها على طلب الشيء وفعله ، أو التخلي عن ذلك مع ما تجده من الاستغراب .

والنفوس تحنّ لشديد المحاكيات المستغربة ، لأن النفس إذا خُيل لها فى الشيء ما لم يكن معهوداً من أمر معجب فى مثله وَجَدَتْ من استغراب ما خيل لها ما لم تعهده فى الشيء ما يجده المستطرف لرؤية ما لم / يكن أبصره قبل وقوع [١٣٦] ما لم يعهده من نفسه موقعا ليس لكثير من المعتاد المعهود .

وفنون الإغراب والتعجيب فى المحاكاة كثيرة ، وبعضها أقوى من بعض وأشدُّ استيلاءً على النفوس وتمكناً من القلوب .

إضاءة :

وتنقسم المحاكاة أيضًا ــ من جهة ما تكون متّرددة على ألسن الشعراء قديمًا بها العهد ، ومن جهة ما تكون طارئة مبتدعة لم يتقدّم بها عهد ــ قسمين : فالقسم الأول هو التشبيه المتداول بين الناس ، والقسم الثانى هو التشبيه الذى يقال فيه إنه مختّرع وهذا أشد تحريكًا للنفوس إذا قدرنا تساوى قوة التخييل فى المعنيين لأنها أنست بالمعتاد فربما قل تأثرها له ، وغيرُ المعتاد يفجؤها بما لم يكن لها به استئناس قط فيزعجها إلى الانفعال بديهًا بالميل إلى الشيء والانقياد إليه أو النفرة عنه والاستعصاء عليه . وأما المعنى فى نفسه فحقيقة واحدة . ولا فرق بالنظر إلى حقيقته بين أن يكون جديداً مختّرعًا ، وأن يكون قديمًا متداولاً وإنما الفضل فى المعنى المختّرَع راجع إلى المختّرِع له وعائدٌ عليه ومبين عن ذكاء ذهنه وحدّة خاطره . وسيأتى لهذا فضلُ بيان فى المنهج الرابع من هذا القسم إن شاء الله .

تنوير :

وتنقسم المحاكاة أيضًا بالنظر إلى محاكاة جزء من معنى بجزء من معنى ، أو محاكاة معنى بمعنى ، أو محاكاة قصة تتضمن معانى بقصة تتضمن معانى ــ ثلاثة أقسام ، الثالث منها تاريخ .

إضاءة :

والتخاييل فى المعانى منها محاكيات تقع فى أمور من جهة ما ترتبت فى مكان وحَصَل لبعضها وَضْعٌ ونسبة من بعض فتحاكى على ما وقعت عليه من ذلك؛ ومنها محاكيات تقع فى أمور من جهة ما ترتبت فى/ زمان ووقع فيه بعضُها بنسبة من بعض [٣٦ ب] وانتسب شىء منها إلى شىءٌ فتحاكى أيضًا على ما وقعت عليه من ذلك .

تنوير :

وإذا خيلت الأمور المترتبة فى مكان أو زمان فلا يخلو من أن يتعرض إلى أن ما خيل عليه أمر كلى فى مكان من ذلك الجنس أو مناقضة لمن يعتقد أن ضد ما خيلته المحاكاة حكم كلى ، فيستثنى المحاكى بعضَ ذلك الكلى فيخرجه عن ذلك الحكم أوْ لا يتعرض ؛ فإن تعرض فالقول إن كان متعلقًا بأمر للناس به عناية وكان(١) فيه ، خرج فى عبارة مركبة حكمة أو مثلاً ، أو جار مجرى الحكمة والمثل ، وإن لم يتعرض بالقول اختصاص أو غير ذلك .

إضاءة :

ولا يخلو أن تخيل نفوس الأمور بأقوال دالة على خواصها وأعراضها المتلاحقة التى تقوم بها فى الخواطر هيئات تلك الأمور وتتسق صُوَرها الخيالية ، أو تخيل بأن تحاكى بأقوال دالة على خواص أشياء أخَر وأعراضها التى بها تنتظم صورها الخيالية فى النفس ، فتجعل الصور المرتسمة من هذه الأشياء المحاكى بها أمثلة لصور الأشياء المحاكاة ، ويستدل بوجود الحكم فى المثال على وجوده فى الممثل . فالقول على هذا ينقسم إلى محاكاة قصص وما جرى مجراه ، وإلى محاكاة حكمة ، وإلى محاكاة قصص بقصص أو نحوه ، وإلى محاكاة قصص بحكمة ومحاكاة حكمة بحكمة . ولا تحاكى الحكمة بالقصص إلا حيث تكون جزئية ، لأن الحكمة إذا

---

(١) كذا فى النص ، ولعلها : كلفة .

كانت كلية كانت أعمّ من القصص فلا تحاكى لذلك به إلاّ على جهة الاستدلال التمثيلى . وربما منع من ذلك فى بعض المواضع كونُ الحكمة أشرفَ من القصص وأجزل موقعًا فلا يفتقر إلى إعانتها بمحاكاة إذا كانت بالغة . فالحكم على هذا إذا استقصيت أركانها وأعرب عنها بلفظ جزْل محكم العبارة أنيق النظام خفيف على اللسان مخيل لما دل به عليه محاكاة — كانت أشدّ لما قبلها أو لم تكن .

معلم دال على طرق المعرفة بأحكام المحاكيات

وما يجب أن يعتبر فيها والاستبانة لمناقل الفكر فى التخيلات الشعرية [٣٧ ا]
وكيفية التهدّى إلى التحسينات والتقبيحات التى ينحى بالأقاويل المخيلة نحوها

قد قدمتُ أن المحاكاة تنقسم قسمين : محاكاة الشىء نفسه ، ومحاكاة الشىء فى غيره . وبقى أن نبين أحكام هذه وأحكام تلك . فلنقدم أحكام محاكاة الشىء نفسه فأقول : إن الأشياء منها ما يُدرَك بالحس ، ومنها ما ليس إدراكه بالحس . والذى يدركه الإنسان بالحس فهو الذى تتخيله نفسُه ، لأن التخيل تابع الحس . وكل ما أدركه (١) الحسُّ فإنما يرام تخييله بما يكون دليلاً على حالة من هيئات الأحوال المطيفة به واللازمة له حيث تكون تلك الأحوال مما يحسّ ويشاهد ، فيكون تخيل الشىء من جهة ما يستبينه الحسُّ من أحواله والآثار اللازمة له حالَ وجوده والهيئات المشاهدة لما التبس به ووجد عنده وكل ما لم يحدد من الأمور غير المحسوسة بشىء من هذه الأشياء ولا خصص بمحاكاة حال من هذه الأحوال ، بل اقتصر على إفهامه بالاسم الدال عليه فليس يجب أن يعتقد فى ذلك الإفهام أنه تخييل شعرى أصلاً لأن الكلام كله كان يكون تخييلاً بهذا الاعتبار .

إضاءة :

فأما الأشياء المُدْرَكة بالحس فإنها تخيل بخواصها وأعراضها . وكلما كانت الأعراض فى ذلك قريبة شهيرة مناسبة لغرض القول كانت أحسن . ولا يخلو الشىء المتخيل من أن يُقْصرَ تخييله على الكمال أو يُقْتصر فيه على أدنى ما يُخيله :

---

(١) ص : أدركته — وبعدها علامة تخريج إحالة إلى شىء فى الهامش لم نجده فيه .

فإن قصد تخييله على الكمال وجب أن يقصد فى محاكاته إلى ذكر خواصه وأعراضه القريبة اللازمة له فى جميع أحواله اللاحقة له فى حال ما من/ جهة هيئته ومقداره [٣٧ ب] ولونه وملمسه . وربما أردف ذلك بمحاكاة هيئته وحركته أو صوته إن كان مما له ذلك. وإن قصد الاقتصار فيه على أدنى ما يخيله كان الوجه أن يقصد إلى بعض خواص الشىء وأعراضه الغريبة الشهيرة فيه كما يقال الصبية الرقشاء — فتتخيل منه الحية . ويستحسن فى المحاكاة أن يبدأ بالأصل فى الشىء والأشهر فيه .

تنوير :

وكل شىء حوكى بما تدركه الحواس فلا يخلو من أن يكون متساوى الأجزاء متماثلها ، أو متخالفها متفاوتها . وكلاهما لا يخلو من أن يكون على صفة واحدة من جميع أقطاره ، أو على صفات شىء فى هيئته أو لونه أو ملمسه . وكل ذلك يجب أن لا يخلو من أن يكون على شكل واحد فى حالى حركته وسكونه ، أو يكون مما يختلف شكله فى الحالين . وكل ذلك يجب أن يعتبر فى المحاكاة إذا قصد تخييل الشىء على جميع هيئاته وأوصافه وفى جميع أحواله فلا يخلط ما تعلق بوصف من ذلك بما تعلق بحال مغايرة لها . وقد يخيل الشاعرُ الشىء ببعض أوصافه دون بعض وعلى ما يكون عليه فى بعض أحواله .

إضاءة :

وكل ما تختلف أجزاؤه وأقطاره وأشكاله وهيئاته فى حال من حال شؤونه فإن المحاكاة فيه لا تخلو من أن تفصل بحسب الأجزاء والأقطار والأشكال والهيئات وتجعل هذه الأشياء أركاناً للكلام تقسم التخاييل إليها وتبنى المحاكاة عليها كقول امرئ القيس :

إذا أقبلت قلت مزغوفة[1]

وقول الأسعر الجُعْفى :

أما إذا استقبلته فتقول هذا مثل سرحان الفضا

أو تجعل الشىء المخيل بحسب تباين أجزائه وأقطاره وأشكاله قطباً لمدار الأوصاف

(١) الذى فى « ديوان امرئ القيس » (ص ١٦٦ . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة ١٩٥٨) : « إذا أقبلت قلت دباءة » — والدباءة : القرعة . أما المزغوفة فيقصد بها الدرع اللينة ، أو الدقيقة الحسنة السلاسل .

المخيلة بهيئة جزء جزء وقطر قطر من أجزاء الشيء وأقطاره ولكل ما تتنوع إليه أشكاله وهيئاته بحسب اختلاف أحوالها مقرونة بمخيلاتها / وما هي محاكاة لهذه الحقيقة على سبيل التخصيص أو مستغنىً عن ذلك. فيكون الكلام محل هذا متناسقاً متسلسلاً ، [٣٨ ا]
وعلى الوجه الآخر مفصلاً مقسماً . وكلما كثرت التخاييل زاد التفصيل حسناً .

تنوير :

وإذا حوكي الشيء جملة أو تفصيلاً فالواجب أن تؤخذ أوصافه المتناهية في الشهرة والحُسْن إن قصد التحسين، وفي الشهرة والقبح إن قصد التقبيح. ويبدأ في المدح بما ظهر الحسن فيه أوضح وما النفس بتقديمه أعنى؛ ويبدأ في الذم بما ظهور القبح فيه أوضح والنفس بالالتفات إليه أيضاً أعنى، وينتقل من الشيء إلى ما يليه في المزية من ذلك، ويكون بمنزلة المصور الذي يصور أولاً ما جل من رسوم تخطيط الشيء ثم ينتقل إلى الأدق فالأدق : وهذا في تخييلات الأشياء المقصود تخييل جزء جزء منها واجبٌ، مثل أن يبدأ بتخييل أعالي الإنسان ويختم بتخييل أسفله، لا سيما إذا كانت المحاكاة تفصيلية . فإن كانت الأوصاف المخيل بها متفاوتة لم يحسن الجمعُ بينها كيفما رتبت إلا باستئناف أجمعها في حيز من الكلام منفصل عن حيز الآخر وبمنزلة المنفصل-كان النقلة من الأعلى إلى الأدنى المفاوت طفرة، ومن الأعلى إلى الأدنى المفاوت سقوطاً وانحطاطاً. فأما إذا تناسبت الأوصاف فالوجه تقديم ما عناية النفس به أكبر وهو عندها أشهر في الشيء وأظهر فيه بالنسبة إلى غرض الكلام .

فهذا هو الوجه في المحاكيات والأوصاف إذا تناسبت ، وأن يقال كما قال حبيب :

إنا غـــدونا واثقين بواثق بالله شَمْسِ ضحى وبَدْرِ تمام

وكما قال المتنبي : شمسٌ ضُحاها هلالُ ليلتها .

ويجوز عكس هذا . لكن هذا هو الوجه الذي كثر في فصيح كلام العرب .

فأما قول القائل : [٣٨ ب]

ا لله لا كلَّمْتُها ولو أنهـــا كالشمس أو كالبدر أو كالمكتفي

فإنما كان النسق ها هنا على سبيل الترقى لأن يذهب بها حيث يقصد تعجيب المخاطب من زيادة الشيء تعظيماً بعد تعظيم أو تحقيراً بعد تحقير مَذْهَبَ من تخطى الشيء إلى ما هو أبلغ منه فى المعنى . فحَسُنَ هذا لما كان هذا المذهب مناسباً لمعنى أو وما ينحى بها نحوه :

إضاءة :

وإنما قدمت العرب أدنى المعنيين على الآخر فى مواضع معلومة من كلامها لمعانٍ أخَر : إمّا لأن الأحقر من جهة ما متقدمٌ على ما هو أجلُّ منه من جهة أخرى أو لأن أحدهما فى ضمن الآخر ويخيل بعض ما خيل لا يكون بينهما تباين إلا من جهة الأزيد والأنقص والأعم والأخص . فذِكرُ القاصر منها بعد متأخر فضل ، فلا يمكن أن يقرن به إلا بتقديمه عليه ؛ أو لأن الأحقر بالنسبة إلى غرض الكلام أبلغ ، نحو قولهم : ما أخذت منه قليلاً ولا كثيرا ، لأن إنكار القليل أبلغ من جهة الجحود فكان القليل لذلك أولى بالتقديم ؛ أو لأن الأحقر يكون فيه استدراج لذكر الأجل وتسبيب له . ولمعان آخر يطول ذكرها . وكذلك التغليب فى مثل القمرين إنما يغلب الأرجح من جهة الفصاحة أو البلاغة لفظاً أو معنى وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل قد أغنى عن ذكره هنا ما أوردناه ونورده بعد إن شاء الله من قوانين الفصاحة والبلاغة . فهذا هو القانون الذى يجب أن يعتبر فى ترتيب التخاييل والأوصاف :

تنوير :

وإنما وقع الغلط فى هذا لقومٍ من القدماء كانوا فقراء من علم البلاغة على غنائهم من الرواية . أو لقوم من أبناء هذا الزمان هم أفقر خلق الله من تلك وهذه ، ولمن يريد
أن يستنبط قوانين هذه الصناعة من صناعة أخرى/ لعله لا يحسنها بـله هذه : وذلك [٣٩ ا]
غير ممكن فإنما يستنبط الشيء من معدنه ويطلب من فطنته . أو لعل مَنْ هذه صفته قد رأى يوماً أحداً ممن تكلم فى علم البلاغة قد عاب الانحطاط من الصفة إلى ما يوافقها فى نسق واحد من الكلام ، فهذا لا يخلو من أن يكون غير عارف بهذه

الصناعة مثله فهو جدير أن يظن أنضد ذلك حَسَنٌ وهو البدء بالشيء الأحقر والصيرورة منه إلى الأعظم المفاوت له فى غرض يترامیان فيه إلى تحسين شئ واحد أو تقبيحه ، أو يكون عارفاً بالصنعة فيكون قد عاب ما هو جدير بالعيب وهو يعتقد أن ضدّه معيب أيضاً كذلك، لأن كلا الموضعين من وضع التنافر . وما أكثر ما يقع الغلط للناس فى هذه الصنعة من هذا الباب! لأن وجوه النظر فيما يحسن ويقبح فى هذه الصنعة لا يحصى كثرة[1] .وسيأتى ما يستحسن ويستقبح فإن له اعتبارات شتى بحسب المواضع وما يليق بواحد واحد منها : وبحسب الأغراض والأحوال وتباين المقاصد فى جميع ذلك تتشعب طرق الاعتبار فى هذه الصناعة إلى ما يعز حصره ؛ فيطالع بعض من لم يتفرغ لهذه الصنعة ولا فى طبعه أن يعلمها لو تفرغ لمثله الشيء التافه من الأقاويل فى هذه الصناعة فيبنى نظره فيها على ذلك ، وهو قد حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء .

إضاءة

ويجب فى محاكاة أجزاء الشيء أن تُرتب فى الكلام على حسب ما وجدت عليه فى الشيء ، لأن المحاكاة بالمسموعات تجرى من السمع مجرى المحاكاة بالمتلونات من البصر ، وقد اعتادت النفوس أن تصور لها تماثيل الأشباح المحسوسة ونحوها على ما عليه ترتيبها فلا يوضع النحر فى / صُور الحيوان إلا تالياً للعنق وكذلك سائر [٣٩ ب] الأعضاء. فالنفس تنكر لذلك المحاكاة القولية إذا لم يُوالَ بين أجزاء الصور على مثل ما وقع فيها كما تنكر المحاكاة المصنوعة باليد إذا كانت كذلك ; فإن وَقَعَتْ محاكاة على هذا النحو من فساد الترتيب فالواجب أن يعتقد فيها أنها صور جزئية إذا كان كل جزء منها قد خيّل على حدته ما يجب فيه لا صورة كلية لأن المجموع ليس له نظامُ المجموع ، فيجب لهذا أن تعتبر المحاكاة تفاريق .

تنوير :

ولا يخلو الشيء من أن يحاكى بأوصاف له شهيرة أو صفات خاملة أو بمجموعها ولا تخلو من أن تقع التخاييلُ فى جميع أجزاء الشيء أو فى بعضها . والمخيل الذى

---

(١) تقرأ أيضاً فى النص : والآتى .

تقع التخاييل فى بعض أجزائه لا يخلو أن تقع فى طرف واحد منه أو فى كلا طرفيه أو فيهما معاً وما بينهما . وأحسن التخاييل ما اشتهرت الأوصاف فيه وعمت .

إضاءة :

فالمحاكاة التامة فى الوصف هى استقصاء الأجزاء التى بموالاتها يكمل تخييل الشىء الموصوف ، وفى الحكمة استقصاء أركان العبارة عن جملة أجزاء المعنى الذى جُعِل مثالاً لكيفيات مجارى الأمور والأحوال وما تستمر عليه أمور الأزمنة والدهور ؛ وفى التاريخ استقصاء أجزاء الخبر المحاكى وموالاتها على حد ما انتظمت عليه حال وقوعها ــ كقول الأعشى [1] :

كُنْ كالسَّمَوْأل إذ طافَ الهمامُ به   فى جَحْفَل كسواد الليل جَرَّار
إذ سامهُ خُطَّتَى خَسْفٍ فقال لــه   قُلْ ما تشاء ــ فإنى سامعٌ ، حارِ
فقال غــدر وثكل أنت بينهمــا   فاختر ، وما فيهما حظ لمختــار
فشكَّ غيرَ طويل ، ثم قال لـــه :   اقتُل أسيرك إنى مانِعٌ جــارى

[٤٠ أ] /فهذه المحاكاة تامة . ولو أخل بذكر بعض أجزاء هذه الحكاية لكانت ناقصة . ولو لم يورد ذكرها إلا إجمالاً لم تكن محاكاة ولكن إحالة محضة .

تنوير :

فأما طريق التهدى إلى تحسينات الأشياء وتقبيحاتها بالمحاكاة فإنه لما كان المقصود بالشعر إنهاض النفوس إلى فعل شىء وطلبه أو اعتقاده . أو التخلى عن فعله أو طلبه أو اعتقاده بما يخيل لها فيه من حُسْن أو قبح ، جلالة أو خسة ــ وجب أن تكون موضوعات صناعة الشعر الأشياء التى لها انتساب إلى ما يفعله الإنسان فيطلبه ويعتقده . والأقاويل الدالة على تلك الأشياء من حيث تخيل بها تلك الأشياء . فتحسين المحاكاة وتقبيحها إما أن يتعلقا بفعل أو اعتقاد ، أو يتعلقا بالشىء الذى يفعل أو يعتقد . وطرق تعلقها بالشىء أو فعله أو اعتقاده أربعة : إما أن يحسن الشىء من جهة الدين وما تؤثره النفس من الثواب على فعل شىء أو اعتقاده وتخاف

---

(١) راجع « ديوان الأعشى الكبير » ص ١٧٩ ، ص ١٨١ ؛ نشرة الدكتور محمد حسين ، القاهرة سنة ١٩٥٠ ، وقد وردت فيه برواية أخرى .

من العقوبة على تركه وإهماله ، وإما أن يقبح من ضد ذلك : وإما أن يحسن من جهة العقل وما يجب أن يؤثره الإنسان من جهة ما هو عاقل ذو أنفة من الجهل والسفاهة ؛ وإما أن يقبّح من ضد ذلك . وإما أن يُحسن من جهة المروءات والكرم وما تؤثره الأنفس من الذكر الجميل والثناء عليه . أو يقبح من ضد ذلك . وإما أن يحسن من جهة الحظ العاجل وما تحرصُ عليه النفس وتشتهيه مما ينفعها من جهة ما تؤثر من النعمة وصلاح الحال ، أو يقبح من ضد ذلك . فوقوع التحسينات والتقبيحات فى التخاييل الشعرية إنما يُسْلك به أبداً طريقٌ من هذه
الأربعة : وهى الدين والعقل والمروءة والشهوة . ويتعلق التحسين والتقبيح/ أبداً [٤٠ ب]
إما بالشىء الذى يُراد الميل إليه أو النفرة عنه ، وإما بفعله أو اعتقاده . وإذن فتلك ثمانية جهات يتفقدها الشاعر أبداً إذا أراد تحسين شىء .

وللتقبيحات أيضًا بالنسبة إلى تلك الطرق فيما يتعلق بالشئ أربعة مذاهب ، وفيما تعلق بفعله أو طلبه أو اعتقاده أربعة أيضًا. فهذه أيضًا ثمانى جهات. والجهات المزدوجة — وهى التى يتعلق التحسين والتقبيح فيها بالشئ وفعله أو اعتقاده معًا بالنسبة إلى تلك الطرق الأربعة — أيضًا ثمان. فجعل من هذه الأنحاء التى تتفرع إليها التحسينات والتقبيحات أربع وعشرون صورة . وإذا اعتبر تحسين الشئ نفسه أو تقبيحه بالنظر إلى ما يكون عليه فى نفسه وما يرجع إليه ، أو بالنسبة إلى ما يكون منه بسبب مما هو خارج عنه ومن جهة ما يقع منه أوْ به فعلٌ — تضاعفت القسمة .

إضاءة :

والتحسين والتقبيح يتعلقان بالفعل من جهة ما هو عليه فى نفسه ، ومن جهة ما تكون عليه الأحوال المطيفة به . والأحوال المطيفة بالفعل هى الزمان والمكان ، وما منه الفعل ، وما إليه الفعل ، وما به الفعل ، وما من أجله الفعل ، وما عنده الفعل . فقد يكون الفعل حسنًا أو قبيحًا فى نفسه وقد يكون الحُسْن والقُبْح من جهة بعض هذه الأحوال المطيفة : فكل فعل قُصِد تحسينه أو تقبيحه من جهة ما يرجع إليه فى نفسه أو من جهة ما يرجع إلى الأحوال المطيفة به فإنما يكون التحسين والتقبيح فيه من جهة ما يكون وفقًا لبعض تلك الأشياء التى كأنها غايات ترامى

[٤١ ا] إليها مطالب الناس أو من جهة ما لا يكون وفقًا لها . وتلك الأشياء التى عليها مدار التحسينات والتقبيحات هى الورَع والعقل والمروءة والشهوة فى الحظّ العاجل . فتحسين الفعل وتقبيحه يقع فى كل ركن من هذه الأركان من ثمانية أنحاء على ما تقدمت الإشارة إليه من حيث أن الفعل تطيف به أحوال سبعة .

تنوير :

وإنما جعلت التحسين والتقبيح ينصرفان طوراً إلى الشىء نفسه ، وتارة إلى فعله أو اعتقاده أو طلبه ، وتارة إلى مجموع ذلك كله لأن الشيخ إذا عشق جارية جميلة وأردنا أن نصرفه عنها بالأقاويل الشعرية اعتمدنا ذم الفعل وعيب التصابى فى حال المشيب وما ناسب هذا . فإن كانت قبيحة أو ممن يجوز تخييل القبح فيها أضفنا إلى ذم تصابى الشيخ ذمّ قبح الفتاة . فإن كان العاشق شابًّا اعتمدنا ذم ما فى المرأة من قبح خـَلْق وخلائق ، نحو ما يوصف النساء به من الغدر والملالة وغير ذلك ، ولم نقبح عليه العشق فى الشباب إلا من جهة عقل أو نحو ذلك .

إضاءة :

والتحسينات والتقبيحات الشعرية تميل إلى أشياء وتنصرف عن أشياء وتكثر فى أشياء وتقل فى أشياء بحسب ما يكون عليه الشىء من التباس بآداب البشر ، وما يكون عليه من نفع أو ضرر ، أو لا يكون له التباس يعتد به فى تأثر النفوس له من جهة نفع أو ضرر . وقد تقدم التنبيه على أحوال المعانى فى جميع ذلك ، فليتصفح هنالك ؛ والله الموفق .

تنوير :

فأما كيفيات مناقل الفكر فى التخيلات التى يـُرام بها إيقاع التحسينات

[٤١ ب] والتقبيحات وفى التخيلات التى يقصد بها أن تكون أعوانا على إيقاع ذلك فيحصل باقتفاء الخواطر مناقلها فى جميع ذلك بوضع ما يجب فى حيز حيز من تلك المناقل على ما يجب من الأجزاء التى منها التئام هذه الصناعة لفظًا ، ومعنى كمال هذه الصناعة على الوجه الذى تكون به مهيأة لحصول الغاية المقصودة بها فهى أن

للمخيلين فى التخيلات التى يحتاجون إليها فى صناعتهم أحوالاً[١] ثمان ، لكن واحدة منها فى زمان مزاولة النظم مرتبة لا تتعداها.

الحال الأولى ، أن يتخيل فيها الشاعر مقاصد غرضه الكلية التى يريد إيرادها فى نظمه أو إيراد أكثرها — على ما أبينه فى القسم الثالث إن شاء الله .

الحال الثانية : أن يتخيل لتلك المقاصد طريقة وأسلوبًا أو أساليب متجانسة أو متخالفة ينحو بالمعانى نحوها ويستمر بها على مهايعها[٢] — وسيأتى الكلام فى الأساليب فى القسم الرابع إن شاء الله .

الحال الثالثة : أن يتخيل ترتيب المعانى فى تلك الأساليب ومن أهم هذه التخيلات موضع التخلص أو الاستطراد .

الحال الرابعة : أن يتخيل تشكل تلك المعانى وقيامها فى الخاطر فى عبارات تليق بها ليعلم ما يوجد فى تلك العبارات من الكلم التى تتوازن وتتماثل مقاطعها ما يصلح أن يبنى الروى عليه . وفى هذه الحال أيضًا يجب أن يلاحظ ما يحق أن يجعل مبدأ ومفتتحًا للكلام . وربما لحظ فى هذه الحال موضع التخلص والاستطراد .

إضاءة :

فهذه أربع أحوال فى التخاييل الكلية : والحال الخامسة . وهى أول حال من التخاييل الجزئية ، أن يشرع الشاعر فى تخيل المعانى معنى معنى بحسب غرض الشعر .

الحال السادسة : أن يخيل ما يكون زينة للمعنى وتكميلاً له ، وذلك يكون بتخيل أمور ترجع إلى المعنى من جهة حسن الوضع والاقترانات والنسب الواقعة بين بعض أجزاء المعنى وبعض وبأشياء خارجة عنه مما يقترن به ويكون عونًا له على تحصيل المعنى المقصود به .

الحال السابعة : أن يتخيل لما يريد أن يضمنه فى كل مقدار من الوزن الذى [٤٢ ا] قصد عبارة توافق نقل الحركات والسكنات فيه مما يجرى فى ذلك الوزن فى العدد والترتيب بعد أن يُخيل فى تلك العبارات ما يكون مُحسنًا لموقعها من النفوس .

---

(١) ص : أحوال .

(٢) جمع مهيع أى طريق .

الحال الثامنة: أن يتخيل – فى الموضع الذى تقتصر فيه عبارة المعنى عن الاستيلاء على جملة المقدار المقفى – معنى يليق أن يكون ملحقاً بذلك المعنى وتكون عبارة المعنى الملحق طبقاً لسد الثلمة التى لم يكن لعبارة الملحق به وفاءٌ بها : ومن هذا قول المتنبى[1] :

نَهَبْتَ من الأعمار ما لوحَوَيْتَه ... لَهُنِّئَتْ الدنيا بأنك خالدُ

ولا يتفق هذا إلا فى بعض المواضع. وهذه الأحوال كلها قد ألمعْتُ فى هذا الكتاب بما يجب فى كل واحدة منها بحسب ما توسع له هذا الموضوع ، إذ لتفصيل القول فى جميع ذلك طولٌ كثير ، وفيما ذكرته وأذكره من ذلك إن شاء الله مقنع .

تنوير :

فعلى هذا النحو من الانتقال أصل منشأ الشعر . وقد يحصل للشاعر بالطبع البارع وكثرة المزاولة ملكة يكون بها انتقال خاطره فى هذه الخيالات أسرع شيء حتى يحسب من سرعة الخاطر أنه لم يشغل فكره بملاحظة هذه الخيالات وإن كانت لا تتحصل له إلا بملاحظتها ولو مخالسة ، وكانت هذه الملكة نحواً من ملكة الخاطر: فإنه وإن كان أصل تعلمه القراءة تتبع الحروف وحركاتها وسكناتها مقطعة فإنه تحصل له ملكة لا يحتاج معها إلى ذلك التتبع بل يعلم عندما يقع بصره على مجموع الحروف المختطة أىّ لفظ يدل عليه ذلك المجموع . هذا على أن صناعة مؤلف الكلام كصناعة الناسج: تارة ينسج بُرْداً من يومه وتارة حُلة مِنْ عامِه ، ولكلٍّ قيمته . وإنما يظن أن ليس بين أنماط الكلام هذا التفاوت مَنْ جهل لطائف الكلام وخفيت عليه أسرارُ النظم .

معلم دال على طرق العلم بما يخص المحاكاة التشبيهية من الأحكام

[٤٢ ب]

وينبغى أن ينظر فى المحاكاة التشبيهية من جهات : فمن ذلك جهة الوجود والفرض ، وينبغى أن تكون المحاكاة على الوجه المختار بأمر موجود لا مفروض .

---

(١) من قصيدة له فى مدح سيف الدولة ، راجع ديوانه بشرح العكبرى جـ ١ ص ٢٧٧ (نشرة الأبيارى والسقا وشلبى ، القاهرة سنة ١٩٣٦) .

إضاءة :

ومن ذلك جهة الإدراك ، وينبغي أن تكون المحاكاة فى الأمور المحسوسة حيث تساعد المكنة من الوجوه المختارة بالأمور المحسوسة وبها يجوز ، بأن تحاكي الأمور غير المحسوسة حيث يتأتى ذلك ويكون بين المعنيين انتساب . ومحاكاة المحسوس بغير المحسوس قبيحة .

تنوير :

وينبغي أن تكون المحاكاة التى يقصد بها وضوح الشبه منصرفة إلى جنس الشيء الأقرب كتشبيه أيطل الفرس بأيطل الظبي (١) والمحاكاة التى يقصد بها التوسع والراحة والقناعة بما يسر من الشبه منصرفة إلى الجنس الأبعد كتشبيه متن الفرس بالصفاة .

وينبغي أن تكون المحاكاة التى يقصد بها إجماع وضوح الشبه وظهور نبل الشاعر وحذقه ، منصرفة إلى الجنس الذى يلي الجنس الأقرب كتشبيه الأشياء الحيوانية بالأشياء النباتية ، نحو تشبيه قلوب الطير رطبةً بالعناب ويابسةً بالحشف ، وتشبيه إبرة الروق بالقلم المستمد .

إضاءة :

وينبغي أن يكون المثال المحاكى به معروفاً عند جميع العقلاء أو أكثرهم بالسجية ، ولا يحسن أن يكون مما يُنْكَر ويجهل .

تنوير :

[١٤٣] وينبغي أن تكون الأوصاف التى يشترك فيها المثال والممثَّل أشهر صفاتها أو من أشهرها . واعتبار هذا الشرط آكد فى صفات الممثل به . وينبغي أن تكون الصفات التى يتضادان فيها أخمل صفاتها .

---

(١) فى بيت امرىء القيس المشهور فى معلقته :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

راجع ديوان (نشرة أبى الفضل إبراهيم) ص ٢١ ، القاهرة سنة ١٩٥٨ .

إضاءة :

ويشترّط فى المحاكاة التى يقصد بها تحريك النفس إلى طلب الشىء أو الهرب منه أن يكون ما يحاكى به الشىء المقصود إمالة النفس نحوه مما تميل النفس إليه ، وأن يكون ما يحاكى به الشىء المقصود تنفير النفس عنه مما تنفر النفس عنه أيضاً فإن مثّل ما يقصد تحريك النفس إلى طلبه بما من شأنها أن تهرب عنه، وما قصد تحريكها إلى الهرب منه بما من شأنها أن تطلبه — كان ذلك خطأ وجارياً مجرى التناقض ، وذلك مثل قول حبيب :

إذا ذاقها ، وهى الحياةُ ، رأيته　　يُعَبِّس تعبيس المُقدَّم للقتـــل

فأما المحاكاة التى لا يقصد بها تحسين ولا تقبيح ولكن محاكاة الشىء بما يطابقه فقط ،فالمذهب الأمثل محاكاة الحسَن بالحسن والقبيح بالقبيح . وقد يحاكى الشىء الحسن فى جزء بالنسبة إلى غرض(١) تأخر ، ولا يقصد فى ذلك إلا محاكاتها من حيث تطابق، وقد يقصد بذلك ضربٌ من الإغراب فيستسهل لذلك تمثيل ما تميل النفس إليه بما تنفر عنه — كقول ابن الرومى :

هامٌ وأرغفــةٌ وضاءٌ فخمــة　　قد أخرجت من جاحم فوار

كوجوه أهل الجنة ابتسمت لنا　　مقرونةٌ بوجوه أهل النـــار

وكأن هذا وما جرى مجراه من عبَث المنهومين !

تنوير :

واعلم أنه لا تحسن محاكاةُ ذى مقدار كبير بذى مقدار صغير ، ولا محاكاة ذى مقدار صغير بذى مقدار كبير إذا كان بينهما تفاوت فى ذلك . وكذلك لا تحسن محاكاة ذى لون بذى لون مخالف له ما لم تقصد، فيما تفاوت فى ذلك وتخالف ، محاكاة هيئة فعل أو حال فى المحاكى والمحاكى به . فإذا قصدت محاكاة [٤٤ ب] هيئة بهيئة لم تلتفت إلى تفاوت ما بين الواحد والآخر فى المقدار ولا تباين ما بينهما فى اللون ، ولذلك استحسن تشبيه الذباب بالقادح لأن المقصود محاكاة إحدى

(١) بعدها فى النص علامة إلحاق فى الهامش لم نستطع قراءته .

الحالين بالأخرى . فالمحاكاة إنما تعلقت بالهيئة لا بالمقدار . وعلى هذا حمل تشبيه العصا بالجان وهو حية صغيرة كثيرة الهيج والحركة بعد تشبيهها بالثعبان المبين ، لأن المقصود فى التشبيه محاكاة هيئة الحركة وليس المقصود محاكاة مقدار هذا بمقدار ذلك .

إضاءة :

واعلم أنه إذا اجتمع فى المحاكى والمحاكى به أوصاف ثلاثة أو اثنان منها ، وهى المقدار والهيئة واللون ، جاز عكس المحاكاة وحسن أن تحاكى الشىء بما حاكيته به.

تنوير :

واعلم أن الصوت والهيئة إذا اتفقا فى متناه فى الحقارة ومتناه فى العظمة فلا تحسن محاكاة أحدهما بالآخر إلا حيث يقصد غلوٌّ فى تحقير المحاكى أو تعظيمه . فإذا لم يتفاوتا فى ذلك جازت محاكاة أحدهما بالآخر وكان الأعظم محاكى به حيث يقصد التعظيم . والأحقر محاكى به حيث يقصد التحقير ، ولا يجوز العكس إلا حيث يتقاربان أو يتكافآن .

إضاءة :

واعلم أن الشئ إذا حوكى بالشئ والمقصود محاكاة أحد فعليهما بالآخر ، وكان فى فعل المحاكى تقصيرٌ عن فعل المحاكى به ، فإنه مستساغ فى الشعر أن يحاكى المقصر بالمقصر عنه وأن يجعل مثله أو مربْيًا عليه إذا كانت الزيادة فى ذلك الفعل مستحسنة بالنسبة إلى ما يراد منه من منفعة أو غير ذلك ، ومن هذا تشبيه الفرس بالريح والبرق . ويجوز أن يحاكى الأعظم حالاً فى الفعل أو المقدار بالأحقر فى ذلك أو هذا ، إذا كان التحقير فى الأعظم مستحسنًا بالنسبة إلى ما يراد منه ، وكأنّ القسم الأول تكميلٌ وهذا تعديل . [٤٤ ا]

معرف دال على طرق المعرفة بالوجوه التى لأجلها حسن موقع المحاكاة من النفس

لما كانت النفوس قد جُبِلت على التنبه لأنحاء المحاكاة واستعمالها والالتذاذ بها

منذ الصبا ، وكانت هذه الجبِلة فى الإنسان أقوى منها فى سائر الحيوان فإن بعض الحيوان لا محاكاة فيه أصلاً ، وبعضها فيه محاكاة يسيرة إما بالنغم كالببغاء وإما بالشمائل كالقرد — اشتد وَلوعُ النفس بالتخيل وصارت شديدة الانفعال له حتى إنها ربما تركت التصديق للتخيل فأطاعت تخيلها وألغت تصديقها . وجملة الأمر أنها تنفعل للمحاكاة انفعالاً من غير روية ، سواء كان الأمر الذى وقعت المحاكاة فيه على ما خيلته لها المحاكاة حقيقة أو كان ذلك لا حقيقة له فيَبْسُطُها التخييل للأمر أو يقبضها عنه فلا تقصر فى طلبه أو الهرب منه عن درجة المبصر لذلك فيكون إيثار الشىء أو تركه طاعةً للتخييل غير مقصر عن إيثاره أو تركه انقياداً للرؤية .

إضاءة :

ومن التذاذ النفوس بالتخيل أن الصور القبيحة المستبشعة—عندما قد تكون صورها المنقوشة والمخطوطة والمنحوتة — لذيذةً إذا بلغت الغاية القصوى من الشبه بما هى أمثلةٌ له ، فيكون موقعها من النفوس مستلذاً لا لأنها حسنة فى أنفسها بل لأنها حَسَنة المحاكاة لما حوكى بها عند مقايستها به . قال هذا أبو على ابن سينا فى « كتاب الخطابة » من كتاب « الشفاء » . ثم قال : وهذا كله للمناسبة بين الصورة مثلاً وما يحاكيها ، وهذه المناسبات / أمور فى الطبيعة . وقال ابن سينا أيضًا [٤٤ ب]
فى « كتاب الشعر[1] » من « كتاب الشفاء » إن النفوس تنبسط وتلتذ بالمحاكاة فيكون ذلك سبباً لأن يقع عندها للأمر فضْل موقع . والدليل على فرحهم بالمحاكاة أنهم يُسرّون بتأمل الصور المنقوشة للحيوانات الكريهة المتقزّز منها ، ولو شاهدوها أنفسها لتنطوا[2] عنها ، فيكون المُفْرِح ليس نفس تلك الصورة ولا المنقوش ، بل كونها محاكاة لغيرها إذا كانت قد أُتْقِنَتْ . ولهذا السبب ما صار التعليم لذيذاً لا إلى الفلاسفة فقط بل إلى الجمهور ، لما فى التعليم من المحاكاة ، لأن التعليم تصوير ما للأمر فى رقعة النفس . ولهذا ما يكثر سرور الناس بالصور المنقوشة بعد أن يكونوا قد أحسوا الخلق التى هذه أمثالها ؛ فإن لم يحسوها قبلُ لم تتم للنهم ، بل إنما

---

(١) راجع « فن الشعر » ص ١٧١ — ص ١٧٢ .

(٢) كذا ، ولعلها من النطو أى البعد ، أو لعلها تحريف أصله : لشطوا بمعنى بعدوا أو لتنكبوا عنها .

يلتذون حينئذ قريباً بما يلتذون من نفس(١)... النقش وكيفيته ووضعه، وما يجرى مجراه » . ثم قال ابن سينا : « والسبب الثانى حبُّ الناس للتأليف المتفق أو للألحان طبعاً . ثم قد وجدت الأوزان مناسبة للألحان فمالت إليها النفوس وأوجدتها . فمن هاتين العلتين تولدت الشعرية » . وقد تضمن كلام ابن سينا شرطاً من شروط المحاكاة لم نذكره ، اكتفاءً بالإشارة إليه فى هذا الموضع ، وهو أن الالتذاذ بالتخيل والمحاكاة إنما يكمل بأن يكون قد سبق للنفس إحساسٌ بالشئ المخيل وتقدُّمٌ لما عَهِدته . — وبقى أن نبسط الكلام شيئاً فى تبيين ما للمحاكاة من حُسْن موقع من النفوس من جهة اقترانها بالمحاسن التأليفية والصيَغ المستحسنة البلاغية وهو الذى أشار إليه أبو على ابن سينا بالتأليف المتفق .

تنوير :

فأما السبب فى حسن موقع المحاكاة من النفس من جهة اقترانها بالمحاسن التأليفية فهو أنه لما كان للنفس فى اجتلاء المعانى فى العبارات المستحسنة من حسن الموقع الذى يرتاح له ما لا يكون لها عند/ قيام المعنى بفكرها من غير طريق السمع ، [٤٥ ب] ولا عندما يوحى إليها المعنى بإشارة، ولا عندما تجتليه فى عبارة مستقبحة ، ولهذا قد نجد الإنسان(٢) يقوم المعنى بخاطره على جهة التذكر وقد يشار له إليه وقد يلقى إليه بعبارة مستقبحة فلا يرتاح له فى واحد من هذه الأحوال ، فإذا تلقاه فى عبارة بديعة اهتز له وتحرك لمقتضاه ، كما أن العين والنفس تبتهج لاجتلاء ما له شعاع ولونٌ من الأشربة فى الآنية التى تشف عنها كالزجاج والبلَّور ما لا تبتهج لذلك إذا عرض عليها فى آنية الحنتم(٣) — وجب أن تكون الأقاويل الشعرية أشدّ الأقاويل تحريكاً للنفوس لأنها أشد إفصاحاً عما به عُلقة الأغراض الإنسانية ، إذ كان المقصود بها الدلالة على أعراض الشئ ولواحقه التى للآداب بها علقة والأقاويل غير الشعرية وخصوصاً ما قصد به التصديق والدلالة على ماهيات الأشياء إنما تفهم

---

(١) بياض بمقدار كلمة .

(٢) بعدها فى المخطوط إحالة إلى الهامش لم نجدها .

(٣) الحنتم : الجرة الخضراء ، كما فى « الصحاح » ؛ وزاد غيره : تضرب إلى الحمرة ؛ قال أبو عبيد : هى جراء حمر ، واتسع فيها فقيل للخزف كله : حنتم .

منها فى أكثر الأمر تلك اللواحق والأعراض على جهة الالتزام والتضمن. وليس ما يكون نصًّا على الشىء فى تمكين إلقائه من النفس طبقًا له مثل ما لا يفهم الشىء منه إلا بطريقة ضمن أو لزوم . وأيضًا فإن الأقاويل الشعرية يحسن موقعها من النفوس من حيث تختار مواد اللفظ ويُنتقى أفضلها وتُركب التركيب المتلائم المتشاكل وتستقصى بأجزاء العبارات التى هى الألفاظ الدالة على أجزاء المعانى المحتاج إليها حتى تكون أبواب الجملة والتفاصيل عن جملة المعنى وتفاصيله — يكون التخييل كما قدمتُ يجب فيه تخييل أجزاء الشىء عند تخييله حتى تتشكل جملته بتشكل أجزاء تتفق صورته بذلك فى الخيال الذهنى على حد ما هى عليه خارج الذهن أو أكمل منها إن كانت محتاجة إلى التكميل . وقد قال أفلاطون فى كتاب « السياسة » له إنا لا نلوم مصوّراً إنْ صَوَّر صورة إنسان فجعل جميع أعضائه على غاية الحسن ؛ [٤٥ ب] فنقول له إنه ليس يمكن أن يكون إنسان على هذه الصورة . وذلك أن المثال ينبغى أن يكون كاملاً ، وأما سائر الأشياء التى هو لها مثال فحسنها لقدر مشاركتها لذلك المثال . وليس ما سوى الأقاويل الشعرية فى حسن الموقع من النفوس مماثلاً للأقاويل الشعرية لأن الأقاويل التى ليست بشعرية ولا خطابية ولا ينحى بها نحو الشعرية لا يحتاج فيها إلى ما يحتاج إليه فى الأقاويل الشعرية ، إذ المقصود بما سواها من الأقاويل إثبات شىء أو إبطاله أو التعريف بماهيته وحقيقته. وإنما يثبت الشىء بغيره وبما هو خارج عنه مما له نسبة إلى ما يرجع إليه مما شأنه إذا ألفت العبارة فيه تأليفًا محدوداً أن ينتقل منه إليه ويصار به إلى معرفة ثباته أو ارتفاعه . وإذا عرف فإنما يعرف بقول يدل على ماهيته المشتركة والخاصة ، وليس يدل على اللواحق والأعراض التى بها تشبُّث الآداب الإنسانية وعلقة الأغراض إلاّ على جهة التزام . وإذا خيل لك الشىء بالأقاويل المحاكية له فالمقصود محاكاة ما هو عليه من حُسْن أو قبح بأقاويل تخيل لواحقه وأعراضه التى بها علقة الأغراض . ومحاسن الشىء ومساوئه راجعةٌ إليه . فإذا حوكى الشىء بصفاته أو ما هو مثال لصفاته تصوّر بما يُرجع إليه وما هو مثال لما يرجع إليه . وإذا قصد التعريف به أو الاستدلال عليه عرف بما ليس له علقة بالأغراض واستدل عليه بما هو خارج عنه. فحصول ما عدا الأقاويل الشعرية إيقاعُ تعريف أو تصديق بما لا تشتد علقته بالأغراض ، أو لا تكون علقته بالجملة ؛ أو مغالطة السامع

وإيهامه أن ذلك واقع من غير أن يكون كذلك . ومحصول الأقاويل الشعرية تصوير الأشياء الحاصلة فى الوجود وتمثيلُها فى الأذهان على ما هى عليه/خارج الأذهان من حُسْن أو قبح ، حقيقة أو على غير ما هى عليه تمويهاً وإيهاماً بأقوال دالة على ما يلحق الأشياء ويعرض لها مما هو خارج من مقوماتها مما علقة الأغراض الإنسانية به قوية . [٤٦ أ]

فالمحصول الأول كمحصول العلم مثلاً بامتلاء إناء أو خلوه بأن يبصر مثلاً يرشح أو يوجد ثقيلاً أو يبصر مكفأ ويوجد خفيفاً. والمحصول الثانى هو الذى للأقاويل الشعرية مثل ما تشف الآنية الزجاج عن صورة ما تحويه ، فلذلك صارت الأقاويل الشعرية أشدّ إبهاجاً وتحريكا للنفوس من غيرها . فلشدة مناسبة الأقاويل الشعرية للأغراض الإنسانية كانت أشد تحريكاً للنفوس وأعظم أثراً فيها .

إضاءة :

وليست المحاكاة فى كل موضع تبلغ الغاية القصوى من هز النفوس وتحريكها ، بل تؤثر فيها بحسب ما تكون عليه درجة الإبداع فيها ، وبحسب ما تكون عليه الهيئة النطقية المقترنة بها ، وبقدر ما تجد النفوس مستعدةً لقبول المحاكاة والتأثر لها . . .

تنوير :

فتحرك النفوس للأقوال المخيلة إنما يكون بحسب الاستعداد ، وبحسب ما تكون عليه المحاكاة فى نفسها ، وما تدعم به المحاكاة وتعضد بما يزيد به المعنى تمويهاً والكلام حُسْنَ ديباجة من أمور ترجع إلى لفظ أو معنى أو نظم أو أسلوب . وقد ذكرت جلّ كليات تلك الأشياء فى هذا الكتاب .

إضاءة :

والاستعداد نوعان : استعداد بأن تكون للنفس حالٌ وهوىً قد تهيأت بهما لأن يحركها قولٌ ما بحسب شدة موافقته لتلك الحال والهوى ، كما قال[1] المتنبى :

إنما تنفــع المقالةُ فى المــرء إذا وافقتْ هوًى فى الفؤاد

---

(١) راجع ديوانه بشرح العكبرى جـ ٢ ص ٣١ ، القاهرة سنة ١٩٣٦ .

والاستعداد الثانى هو أن تكون النفوس معتقدة فى الشعر أنه حَكَمٌ وأنه غريم يتقاضى النفوس الكريهة الإجابة إلى مقتضاه بما أصابها(١) من هِزَّة الارتياح لحسن المحاكاة . هكذا كان اعتقاد العرب فى الشعر . فكم خَطْب عظيم هوّنه عندهم [٤٦ ب] بيت ! وكم خَطْب هين غظمه بيت آخر ! ولهذا كانت ملوكهم ترفع أقدار الشعراء المحسنين ، وتحسن مكافأتهم على إحسانهم . وكان لغير العرب من الأمم فى القديم أيضًا من العناية بالشعر والتأثر له وحسن الاعتقاد فيه مثل ما كان للعرب . وقد قال أبو على بن سينا إنهم كانوا يُنْزِلون الشاعر منزلة النبي فينقادون لحكمه ويصدقون بكهانته . هذا على أن العرب انتهت من إحكام الصنعة الجديرة بالتأثير فى النفوس إلى ما لم تنته إليه أمة من الأمم لاضطرارهم إلى التأنق فى تأسيس مبانى كلامهم وإحكام صنعته بسكناهم البيد البسابس فى غير إيالة تربطهم وسياسة تضبطهم ، فكانوا أخلق أمة بأن يكثر تنازعهم فيما يقوّمون به معايشهم ؛ فاتخذوا الإبل لارتياد الخِصْب ، واتخذوا الخيل للعز والمنعة ، واتخذوا الكلام المحكم نظمًا ونثرًا للوعظ والحض على المصالح .

تنوير :

ولشدة حاجة العرب إلى تحسين كلامها اختص كلامها بأشياء لا توجد فى غيره من ألسن الأمم . فمن ذلك : تماثل المقاطع فى الأسجاع والقوافى ، لأن فى ذلك مناسبةً زائدة . ومن ذلك اختلاف مجارى الأواخر . واعتقاب الحركات على أواخر أكثرها ، ونياطتهم حرف الترنم بنهايات الصنف الكثير المواقع فى الكلام منها لأن فى ذلك تحسينا للكلم بجريان الصوت فى نهاياتها ، ولأن للنفس فى النقلة من بعض الكلمة المتنوعة المجارى إلى بعض على قانون محدود — راحة شديدة واستجدادا لنشاط السمع بالنقلة من حال إلى حال ؛ ولما فى حسن اطراده فى جميع المجارى على قوانين محفوظة قد قُسمَتْ المعانى فيها على المجارى أحسن قسمة تؤثر من جهتى التعجيب والاستلذاذ/ للقسمة البديعة والوضع المتناسب العجيب . وكان تأثير المجارى المتنوعة [٤٧ أ] وما يتبعها من الحروف المصوتة من أعظم الأعوان على تحسين مواقع المسموعات من

(١) قد تقرأ فى النص : أسلبها .

النفوس: وخصوصًا فى القوافى التى استقصت فيها العرب كل هيئة تستحسن من اقترانات بعض الحركات والسكنات والحروف المتماثلة المصوتة وغير المصوتة ببعض ، وما تتنوع إليه تلك الاقترانات من ضروب الترتيب : فهذه فضيلة مختصة بلسان العرب . ولهذا قال أبو نصر[1] إن الألسن العجمية متى وجد فيها شعر يقفى فإنما يرومون أن يحتذوا فيه حذو العرب ، وليس ذلك موجوداً فى أشعارهم القديمة .

إضاءة :

وإنما التزمت العربُ إجراء اللواحق المصوتة على أعقاب الكلم ونهاياتها على قانون قانون فى موضع موضع لا ينعدى فى كل موضع منها صورة مخصوصة من المجارى : أحدهما أنها احتاجت إلى فروق بين المعانى ، وقد كان يمكنها أن تجعل لذلك علامات غير اختلاف مجارى الأواخر كما فعل غيرها من الأمم ، لكنها اختصرت وجعلت مجارى الأواخر التى احتاجت إليها لتنويع مجارى القوافى والأسجاع وتحسين نهايات الكلمةبالجملة — فروقًا بين المعانى ، فاجتمع لها فى إجراء الأواخر على ما أجرتها فائدتان . والوجه الثانى فى السبب الذى لأجله التزموا إجراء الكلام على قانون بحسب موضع موضع أنهم لو أخروا أواخر الكلم كيف اتفق لم يكن ذلك ملذوذا ، لأن ذلك أمر لا يرجع إلىنظام وبجَرْىالأمور على نظام منضبط محكم موقع عجيب من النفس بحفظ المتكلم لنظام كلامه ومقابلته بضروب هيئاته ضروب هيئات المعانى اللائقة بها ولو كان الأمر فى ذلك علىغير نظام لما كان للنفوس فى ذلك تعجيب ، ولكانت الفصاحة مرقاة غير معجزة أحدا .

تنوير :

[٤٧ ب] ولنرجع إلى ما كنا بسبيله من التكلم فيما تكون عليه النفس من استعداد لقبول المحاكاة والتأثر لها أو غير ذلك فنقول : إن الاستعداد الذى يكون بانطواء السامع على هوى يكون غرض الكلام المخيل موافقًا له فينفعل له بذلك — أمرٌ موجود للكثير من الناس فى كثير من الأحوال . أما الاستعداد الذى يكون بأن يعتقد فضل قول الشاعر وصَدْعه بالحكمة فيما يقول فإنه معدوم بالجملة فى هذا الزمان ، بل كثير من

(١) أى الفارابى .

أنذال العالم — وما أكثرهم! — يعتقد أن الشعر نقصٌ وسفاهة. وكان القدماء من تعظيم صناعة الشعر واعتقادهم فيها ضد ما اعتقد هؤلاء الزعانفة على حال قد نبه عليها أبو على ابن سينا فقال : كان الشاعر فى القديم ينزل منزلة النبىّ فيُعْتقد قوله ويصدَّق حكمه ويوقن بكهانته . فانظر إلى تفاوت ما بين الحالين : حال كان ينزل فيها منزلة أشرف العالم وأفضلهم ، وحال صار ينزل فيها منزلة أخسّ العالم وأنقصهم !

إضاءة :

وإنما هان الشعر على الناس هذا الهُون لعُجْمة ألسنتهم واختلال طباعهم ، فغابت عنهم أسرار الكلام وبدائعه المحركة جملةً ، فصرفوا النقص إلى الصنعة ، والنقص بالحقيقة راجع إليهم موجود فيهم . ولأن طرق الكلام اشتبهت عليهم أيضًا فرأوا أخساء العالم قد تحرّفوا باعتفاء الناس واسترفاد سواسية السوق بكلام صوروه فى صورة الشعر من جهة الوزن والقافية خاصة ، من غير أن يكون فيه أمر آخر من الأمور التى بها يتقوّم الشعر ، وكأن منزلة الكلام الذى ليس فيه إلا الوزن خاصة من الشعر الحقيقى منزلة الحصير المنسوج من البَرْدِى وما جرى مجراه من الحُلة المنسوجة من الذهب والحرير لم يشتركا إلا فى النَّسْج كما لم يشترك الكلامان إلا فى الوزن .
ولكثرة القائلين المغالطين فى دعوى النظم وقلة العارفين / بصحة دعواهم مِنْ بطلانها [٤٨ أ]
لم يفرّق الناسُ بين المسىء المسف إلى الاسترفاد بما يحدثه وبين المحسن المرتفع عن الاسترفاد بالشعر فجعلوا قيمتهما متساوية ، بل ربما نسبوا إلى المسىء إحسان المحسن وإلى المحسن إساءة المسىء . فصارت نفوس العارفين بهذه الصنعة بعض المعرفة أيضًا تستقذر التحلى بهذه الصناعة إذ نجسها أولئك الأخساء واشتبه على الناس أمرهم وأمرُ أضدادهم فأجروهم مجرى واحداً من الاستهانة بهم . فالمعرّة لا شك منسحبة على الرفيع فى هذه الصنعة بسبب الوضيع ؛ فلذلك هجرها الناس وحقّها أن تُهجر .

تنوير :

ولأن النفوس أيضًا قد اعتقدت أن الشعر كلّه زورٌ وكَذِبٌ على ما رآه قوم

قد حكى قولهم ابن سينا راداً عليهم ، وكان يجب على هؤلاء إن كان لهم علمٌ بالشعر ألا يحملهم الحسد فيما قصرتْ عنه طباعُهم على أن يتكلموا فى ذلك بغير تحقيق . وكثيراً ما يذم الإنسانُ ما مُنِعَه شيمة ثُعالية[1] ، فيحملهم الحسد على الغض من الشعر وأهله بإخراجه من الحقائق جملة ؛ وإن كانوا ممن ليس لهم به علم وما أجدرهم أيضًا بهذا ! فكان يجب عليهم أن يتعلموا ، أولا يتكلموا فيما لم يعلموا . فالناس إذا اعتقدوا هذا الاعتقاد كانوا خُلقاء بأن يأخذوا أنفسهم بألا تتحرك للشعر ولا تهتز إليه . وأنت إذا نظرت من تعلم منه شيمة حسد من الكهول والشيوخ الذين يئسوا من البلاغة فى النظم والنثر وجدته إذا أنشدته شعراً حسناً أما شديد العبوس مربد الوجه لشدة الاغتياظ ، وإما باديا فيه يسير من الهزة وظاهراً منه أنه يقمع نفسه ويمنعها تسريح العِنان فى الهزة لئلا يُسَرَّ بذلك المنشد ولا سيما إن كان الشعر له . فأما الأحداث فمثل هذا الحسد فيهم قليل لأنهم لم يقطعوا يأسهم من إدراك البلاغة ، وأيضًا فإنهم لا يطالبون أنفسهم فى السن الحديثة / من الاستكمال والأنفة من النقص فى المعارف بما طالب به أنفسهم أولئك . [٤٨ ب]

إضاءة :

وربما قال قائل : إذا كانت الأقاويل الشعرية منها ما يخيل الشيء ويمثله نفسه بتعرف صورة الشيء مما أعطاه ومثله القول المخيل ، كالذى يحاكى بالدُّمْية صورة امرأة فتعرف صفاتها بها ؛ — ومنها ما يترك فيه المعنى المخيل للشيء ويخيل بما يكون مثالاً لذلك المعنى ، كالذى يتخذ مرآة فيقابل الدمية بها فيريك تمثالها فتعرف أيضًا صورة الشيء المحاكى بالدمية بالتمثال الذى فيه والدمية فى المرآة . وقد رأينا من يرى الدمية أو تمثالها فى المرآة لا يتحرك لها ولا لتمثالها بنسبة مما كان يتحرك لرؤية الشخص الذى حوكيت صورته بالدمية . فيجب على هذا أن لا يكون التحرك لما يتخيل من الشعر بنسبة من التحرك لمشاهدة الأشياء التى خيلت . وأنتم تقولون إن الأقاويل الشعرية ربما كان التحرك لما يتخيل من محاكاتها أشدَّ من التحريك لمشاهدة الشيء الذى حوكى ، وابتهاج النفس بما تتخيله من ذلك فوق ابتهاجها بمشاهدة المخيل . فيقال لهم أولاً إن الدمية والشخص الذى صورت على صورته يختلف اعتبارها فى تحريك النفوس . فالدمية تحركها بالتعجيب من حسن

---

(١) أى شأن الثعلب فى الحكاية المشهورة عن الثعلب والعنب . والثعالة : الثعلب .

محاكاتها وإبداع الصنعة فى تقديرها على ما حوكى بها . والشخص الذى هى تمثال له إن كان مستحسناً فإنه يحرك النفوس بالصبابة إلى حسنه وما يتعلق لها به من أدب ، « و » إذا كانت الدمية صورة جارية مثلاً فربما كان تحريك الدمية من طريق التعجيب أكثر من تحريك الذى هى تمثال من هذا الطريق ، بل الأمر فى الأكثر على ذلك . والقول المخيل قلما يخلو من التعجيب بل كأنه مستصحب له من أقل ما يمكن من ذلك فى القول المخيل إلى أكثر ما يمكن . والتعجيب فى القول المخيل يكون إما من جهة إبداع محاكاة الشئ وتخييله ، كما كان ذلك فى الدمية ، ويكون من جهة كون الشئ المحاكى من الأشياء / المستغربة والأمور المستطرفة . وإذا وقع [٤٩ ا] التعجيب من الجهتين المذكورتين على أتم ما من شأنه أن يوجد فيهما فتلك الغاية القصوى من التعجيب ، وللنفوس إلى ما بلغ هذه الغاية تحريك شديد .

تنوير :

ثم يقال لمن اعترض بأن محاكاة الشئ يجب أن يكون التحرك لها أقل من التحرك لمشاهدته إن تمثلنا فى المحاكاتين بالدمية والمرآة على جهة من التسامح . وإنما ينبغى أن يمثل جنس[١] المحاكاة فى القول بأحسن ما يمكن أن يوجد من ضروب تصاوير الأشياء وتماثيلها — فأقول إن من أحسن ما يجرى من ذلك تصور أشعة الكواكب بالشمع والمصابيح المسرجة فى صفحات المياه الصافية الساكنة التموج من الخلجان والأودية والمذانب[٢] والأنهار وكذلك تمثل أفانين شجر الدوح بما ضم من ثمر وزهر فى صفحات الماء الصَّفْو إذا كان الدوح مطلاً عليه فإن اقتران طرفى الغدير الدَّوْحية بما يبدو من مثالها فى صفاء الماء — من أعجب الأشياء وأبهجها منظراً . ونظير ذلك من المحاكاة من حسن الاقتران أن يقرن بالشئ الحقيقى فى الكلام ما يجعل مثالاً له مما هو شبيه به على جهة من المجاز تمثيلية أو استعارية كقول حبيب :

دِمَنٌ طالما التقت أدْمُعُ المُزْنِ عليها وأدْمُعُ العشاق

---

(١) كلمة عسرة القراء هكذا : دامن !

(٢) جمع مذنب : مسيل الماء فى الحضيض .

وقول ابن التنوخي :

لما ساءنى أن وشحتنى سيوفهم وأنك لى دون الوشاح وشاحُ

فحسن اقتران أدمع العشاق ، وهى حقيقية ، بأدمع المزن وهى غير حقيقية؛ واقتران الوشاح الذى هو حقيقة بالوشاح المراد به التزام المعتنق وهو غير حقيقى يجرى فى حسن موقعه من السمع والنفس مجرى موقع حسن اقتران الدوح الذى له حقيقة بمثاله فى الغدير ولا حقيقة له من العين ، فإن المسموعات تجرى من السمع مجرى المتلونات من العين .

إضاءة :

[٤٩ ب]

وأما تخييل الشىء نفسه بالقول المحاكى له فكأن نسبته إلى النفس والسمع نسبة إفصاح الزجاجة عما حوَته وإفشائها سرّ ما أودعته إلى العين من تماثيل فى الشَّمَع ذوات الأنوار، أو الأدواح الخضر ذوات النوار فى صفحات الماء ما ليس لها لرؤية صور هذه الأشياء حقيقة ، لأن حال معاينة أشكال هذه الأشياء فى المياه أقل تكرراً على الإنسان من مشاهدة حقائق تلك الصور التى لها أشد استطرافاً . وأيضاً فإنه يقع فى اقتران تمثال الشىء المستحسن به من التشاكل نحوٌ مما يقع بين اقتران بعض المتلونات ببعض . وأيضاً فإن محاكاة الشىء بغيره أطْرف من محاكاته بصفات نفسه وهى أكثر جدة وطراءة منها ، فكانت محاكاته بها أطرف من محاكاته بصفات نفسه . فلهذا وما ذكرنا فيما تقدّم ولما نذكره بعد فى قوانين المعانى والنظم والأسلوب وما يقع فى كل ذلك من إبداع التخاييل وحُسْن الهيئات التى هى أعوان للتخاييل المعنوية على ما يراد من تأثر النفوس لها حسن موقع الأقاويل الشعرية من النفوس .

تنوير :

واعلم أن منزلة حسن اللفظ المحاكى به وإحكام تأليفه من القول المحاكى به ومن المحاكاة بمنزلة عتاقة الأصباغ وحسن تأليف بعضها إلى بعض وتناسب أوضاعها

من الصور التى يمثلها الصانع . وكما أن الصورة إذا كانت أصباغها رديئة وأوضاعها متنافرة وجدنا العين نابية عنها غير مستلذة لمراعاتها ، وإن كان تخطيطها صحيحاً — فكذلك الألفاظ الرديئة والتأليف المتنافر وإن وقعت بها المحاكاة الصحيحة فإنا نجد السمع يتأذى بمرور تلك الألفاظ الرديئة القبيحة التأليف عليها ، ويشغل النفسَ تأذى السمع عن التأثر لمقتضى المحاكاة والتخييل . فلذلك كانت الحاجة فى هذه الصناعة إلى اختيار اللفظ وإحكام التأليف أكيدة جداً .